مَنينَة بلانْشيه

محمّد ولد أمين

رواية

دار الساقي

منينة بلاتشيه

الإهداء

أهدي هذا الأثر إلى المتّشحين بالسواد
حداداً على العدالة المختطفة؛
أهديه إليهم جميعاً،
من ولد داداه وحتى ولد بوحبيني،
وعبرهم إلى كل المحامين الموريتانيين.

-1-

لم يعرف أحد كيف حصل ما حصل... تهاوت طائرة «الآيروبوستال» فوق صخور غرناطة؛ تهشّمت واشتعلت ثم تفتت... ولم نستطع معرفة السبب.

انتهت رحلة الآيروبوستال الفريدة والمنطلقة من داكار نحو تولوز بمصابٍ جلل، وهي رحلة غير تقليدية على متن طائرة غير تقليدية... طائرة متحفية تتقصد في الظاهر مشابهة الجيل الأول، أي جيل طائرات البريد الموسّع والطويل. وقد قيل إنه تمّ فحصها جيداً وأنه تمّ تحسينها بقوة... وقيل أيضا إنها مضمونة تقنياً وآمنة جداً وأنها اختُبرت تجريبياً بعناية أكبر مهندسي البورجيه والبروفانس.

حصل الاختبار مرات عديدة قبيل انطلاق تلك الرحلة المخصصة لإحياء تراث الطيران الفرنسي عموماً والتغنّي خصوصاً بمجد الطيار والكاتب أنطوان دو سانت إكزوبيري الذي كان يقود طائرته على نفس الخط ويتوقف في نفس المحطات ووصلت داكار دونما صعوبة أو خلل.

في طريق العودة اختلّ توازنها عند اعتراض غيمة صغيرة طريقها، فتهاوت... ثم انفجرت فور اصطدامها بالأرض، ووُجد جناحها الأيمن سليماً على بعد كيلومتر واحد من الهيكل المنصهر، ولم يتمكن الإسبان الذين هرعوا لإغاثة الطائرة من العثور على خصلة واحدة من شعر أمي!

كل من كان في الرحلة طيارون محترفون أو هواة من أهل الدراية بهذا الفن السماوي الجميل... وكلهم كانوا من أصدقاء أنطوان دو سانت إكزوبيري شخصياً: ذلك ما تشهد به الصحافة الفرنسية والعالمية في سلسلة طويلة من الصفحات الحزينة.

كلهم اقتفوا أثره فحلّت بهم لعنته!

لذلك أتساءل: هل دو سانت إكزوبيري مسؤول أيضاً عن قتل أمي؟

تعرّف سانت إكزوبيري إلى أبي في حياته، وأكسبه حب التحليق والتفلسف عالياً، وتعلمت أمي الطيران وولهت بالأعالي كثيراً. وكان أبواي – على ما يبدو– يلقباني بـــ«الأمير الصغير» تيمّناً بذلك الأمير الذي خرج من قريحة الكاتب الجهبذ وهو فوق المزن المثقلات بالقطن السيال وبالفرح البعيد... وهي نفس المزن العابرات دوماً دونما كبير تهاطل على أرض الرجال الجرداء والبائسة .

كيف يعقل أنّ نفس الغيوم التي تأتي غالباً من بعيد وتمر فوقنا بسرعةٍ آثمة قد توقفت مزنة مجرمة منها هناك وترصّدت أمي وربما قتلتها؟

لم أسافر معهما لأنها كانت رحلة عمل ونزهة مع التاريخ، وإلاّ لكنت من الملائكة المرفرفين في جنان الخلد منذ زمنٍ طويل!

تركاني في بيتنا في نواكشوط تحت عناية جيشٍ من الأعوان والمربّيات وراحا ولم يعودا. ماتت أمي وأنا في الثالثة، ومعها – كما يقول البعض – مات أبي... نعم، يقول البعض إنه أبي وتشهد على ذلك أوراقي الثبوتية!

لكن يقول البعض الآخر، ولا يعدمون دليلاً على أقوالهم، إنها ماتت في حضن زوجها، وأنني ابنٌ لزوجٍ آخر كما يزعم والدي الموريتاني وكما تشهد على ذلك قسماته المسجّلة على صفحة وجهي.

قد يبدو الأمر لكم غريباً بل مستحيلاً... لكنه غير مهم!

المهم والثابت والمتفق عليه هو اختفاء أمي تماماً في الرابع من مايو... الرابع من مايو من كل عام هو يوم الذكرى الحزينة والنكراء وموعدي السنوي مع الكآبة المميتة.

لقد كان يوماً عاصفاً بالنسبة لي ولكل من فقدوا فيه ذويهم، لكنه من الناحية المناخية البحتة كان يوماً عادياً ظلّت سماء الأندلس فيه على حالها المعهود؛ فقد كان الجو طرياً وناعماً حسب سجّلات مصالح الرصد الإسبانية في مدريد وحسب تقارير لجان التحقيق الفرنسية والإسبانية.

في ذلك اليوم كانت السماء عادية, مجرد سماء أندلسية زرقاء وشبه صافية, لم تتخللها إلا غيمة واحدة شاردة وغبية... ويبدو أنها كانت السبب.

لجان التحقيق اهتمّت كثيراً بلغز وفاة أمي لأن نفس المصير اشتركت فيه مع فرنسيين مهمّي الرتب وعظام الشأن وقد انصهروا معها وشكّلوا جسماً موحداً اختلط فيه الفولاذ باللحم البشري وعبروا سوياً النفق أو السرداب المؤدّي إلى العالم الآخر في نفس اللحظة.

أتساءل أحياناً: هل لو ماتت لوحدها كنت سأتعرف على تفاصيل الرحلة؟ وهل سيكون من حقي أن اقرأ طنّاً كاملاً من الورق حول ما حدث؟

آلاف الصفحات كتبت عن هذه الرحلة وعن نوعية الركاب، وآلاف أخرى سُطّرت عن تاريخ الطائرة ونوعية محركها وعن صلاحيته من كل الجوانب.

لقد كتب علماء الفيزياء والميكانيك أشياء مغرقة في التقنية عن نوعية الأجسام المكونة للطائرة ولم يتركوا شيئاً منها إلا وتمّت معاينته وفحصه وغربلته حتى صار بمقدوري أن أجزم بمعرفتي لهذه الهندسة الفريدة دون دراسة جامعية.

بسبب تعدد لجان التحقيق تكاثرت الفرضيات حول أسباب الكارثة، فقد ذهب أحد الأسبان إلى أنّ السبب لم يكن في الطائرة وإنما في الطيار الذي كان أطول من المعتاد لأنه من الجيل البشري الثاني الذي أعقب هذا الجيل من الطائرات، وأنه تبعاً لذلك لم يكن مرتاحاً في كابينة القيادة، وأنّ الغيمة التي سجّلت

ذلك اليوم ربما أربكته فقام بمناورة غير ضرورية دفعته إليها رغبته في التمدد فمال عنها دون ضرورة للميلان فحصل ما حصل.

اعتبر آخر أنّ السبب الرئيسي لما حدث هو في نوعية الطلاء وأنه من الصنف الحديث الذي لا يتطابق مع المعادن المكونة للجناح، وأنّ ذلك ربما أدّى إلى شرارة بسيطة أربكت الطيار وتصادف ذلك مع مروره بالغيمة الكبيرة وهو يركّز بنظره على الجناح الخارجي في انعطاف الهبوط فاندفع يتملّص منها وربما قام بتخفيف الضغط على السرعة فاختل توازن الطائرة وحصل ما حصل.

المهم كانت هناك غيمة عابرة قتلت أمي!

حوادث الطيران المريرة هي أبشع حالات الموت الجماعي على حين غرّة؛ فحين أتخيل مشاعرهم كركاب لحظة السقوط أحسبها خليطاً من الحسرة والذعر... والذعر مفهوم وطبيعي عند رؤية بصيص من ضوء في نهاية النفق الوردي الذي يصفه كثيراً كل من اقترب من الموت.

لا بدّ أنّ البصيص هنا كان ناراً حارقة، ولا بدّ أنهم استمعوا إلى موسيقى هادرة مكان تلك الموسيقى الخافتة التي ترافق الرحيل العادي واليومي والبسيط حسب ما يقول ويكتب علماء الموت.

لقد سافرت أكثر من مرة إلى تلك الربوع الساحرة التي تمّ فيها استدعاء أمي إلى أمجاد السماوات العلوية. وفي كل مرة كنت أقرأ فيها اسمها المنقوش على تلك اللافتة المخلّدة لضحايا الرابع مايو 1964 كنت أحس بها قربي تتلمّسني!

نعم، أشعر بها كمن تعتذر لي عن عدم اصطحابها إياي في سفرها الأخير!...

نعم، أحسّ بكل ذلك وبأشياء أخرى في كل مرة وقفت فيها في ذلك المرج الحزين وقرب تلك الصخور الناتئة عند أقدام جبل النظرة الأخيرة جنوب غرناطة.

في كل زياراتي إلى المكان كانت هناك دوماً ريح طرية وأنيسة تحمل إليّ قبلاتها ثم تطوّقني... نعم تطوقني وتلفّني برقة وحنو، وفجأةً أعود إلى جوارير النسيان... أعود رضيعاً... ثم أتدحرج... ثم أحبو وأناغي أمي التي ما زلت أنتظر عودتها من خمسين سنة.

سبحان الله!

على تلك الصفيحة التذكارية التي تطلّ بشموخٍ بابليّ على المرج الغرناطي الحزين نُقشت أسماء أشخاص آخرين من بينهم أبي – حسب الوثائق القانونية – وقد تعرّفت إلى ذويهم جميعاً، بل أسّست مع بعضهم رابطة التذكّر والتخليد لضحايا حادثة غرناطة، لكن لم يلامسني منهم أحد قط ولم تحمل أبداً ريح المكان قبلاتهم لي.

لقد غرقت كثيراً في دراسة حيوات وتواريخ رفاق أمي حتى أصبحت مؤرّخاً معتَمداً عند أغلب تلك العائلات التي فقدت أحد أفرادها، وكثيراً ما هاتفني بعض نسلهم يسألني عن تفاصيل منسية عن والده أو جده.

مع الزمن أصبحت أملك أكبر عدد من الصور والوثائق المتعلقة بتلك الرحلة بما فيها مخططها الهندسي الأصلي، بل تمكّنت من وضع اليد على قطعة معدنية صغيرة من بقايا هيكل الطائرة هدية من مدير المتحف الجوي الإسباني، وقد علّقتها كإيقونة مقدّسة في صالون بيتي، وما زلت أواصل تقبيلها كل يوم بخشوعٍ صادق كما يؤدّي جلّ الناس طقوسهم الدينية.

في بروكسل، منذ سنة، أقنعني طبيبي وصديقي الدكتور برنارد أن أصوم طويلاً كي أستذكر أمي. نعم، قال لي ذلك في بروكسل التي نزحت إليها كي أكون أكثر قرباً من الدكتور العجيب الذي وعدني برؤيتها!

قد يضحككم ذلك، لكنه لا يُضحك بالمرّة. فالدكتور برنارد يعتبر أنّ الإنسان لا يرث القسمات البيولوجية فقط من والديه بل يرث معها الذاكرة، ويصرّ في أبحاثه الرائعة على أن الصيام الطويل يوقظ الذاكرة البعيدة المطمورة في تلافيف الدماغ وتحديداً في «قرن برنارد»، وهو الاسم العلمي للنتوء الداخلي في الشقّ الأيمن من البطين الأيسر، ويشمل النقطة الغامضة من الدماغ التي تتواصل بنسيج من خلايا الإدراك العصبي مع «قرن آمون» المتخصص في تخزين ذكريات الدرجة الأولى أو الذكريات العرضية، أي ذكريات الحياة الراهنة.

«قرن برنارد» يعتبر معادلاً للشريحة الرقمية الممغنطة للذاكرة الصلبة في الكمبيوتر، ويسمّى أيضاً «الذاكرة المتسلسلة» أو «الذاكرة السحيقة». ويزعم الدكتور برنارد أنّ هذه الذاكرة السحيقة والعصية من الممكن أن تتفتح وأن تبوح بمخزونها عبر منهجية التحفيز واستخدام تقنيات معقّدة منها الصوم الذي يستدعي هرمون الليبيتين شديد الإثارة، وهو نفس الهرمون الغريب المعروف عند علماء الأحياء بهرمون الجوع.

قبلت تجربة الصيام بدافع التحدي والفضول وحبّاً في مواصلة الحوار مع روح أمي ومعرفة حقيقتها، لكنه في نهاية المطاف كان حواراً صعباً ومؤلماً ومشوّشاً.

إنها رحلة داخلية عجيبة قادتني إلى أغوار بعيدة وغريبة؛ فكثيراً ما استوقفتني خلالها ذكريات أجداد آخرين لست مهتماً بهم: وكيف أهتمّ بقطاع الطرق في صحارانا الموحشة القفراء؟

لقد أزعجوني كثيراً – رحمهم الله – خلال صيامي وتنسّكي؛ فعبادة الأسلاف ليست من مقدساتي الخاصة، وكيف تكون كذلك وقد أتيح لي أن أعرف بيقين شاهد العيان أنهم لم يكونوا أبداً أكثر منا إنسانيةً أو تقوى.

نعم، فكل من شاهدت أزعجني كثيراً ومريراً!

حتى أمي أزعجتني مشاهدتها أحياناً... فرؤية الحالات الإنسانية التي اعترضت مسارها الحياتي كبشر ليست بالضرورة أمراً سياحياً... ولكم أن تتصوروا مدى التوتر الذي قد يعتريني حين يرى أو يتخيل الواحد منكم أمه تضرط أوتتغوط... أو تمارس الجنس.

في رحلة الاستذكار بواسطة الصوم المتبتل والمدعوم بطبابة الدكتور برنارد تختفي تحت لوعة الجوع والشوق والعطش كل المواضعات والمستورات وتبوح المكتومات بأسرارها ويتساوى المباح والمحرَّم ويتحالف القبيح والفاخر في فسيفساء الحقيقة الصريحة. لذلك يمكنني القول دونما مواربة إن حياة كل الناس تشبه منمنمة فارسية متعددة الألوان ومتداخلة الأشكال وما خفي أعظم، وهذا ليس ذنبي ولا حتى ذنب الدكتور برنارد.

الذاكرة الانتقائية التقليدية لا مكان لها تحت عتبات الذكريات المقدّسة؛ فالصائم هنا لا يحدّد ولا يختار ما ستتاح له مشاهدته، لذلك أعتذر مسبقاً وعميقاً عن أي تفاصيل لا أستطيع كتمانها حتى ولو خدشت حياء القارئ أو جرحت تقاليده أو زعزعت يقينه ومكتسباته.

في عيادة الدكتور برنارد، الواقعة في شارع ضيق وفرعي من بلدية سانت جيل غير بعيد عن قلب مدينة بروكسل، تمّ تجهيز كل شيء لرحلتي مع الصوم الطويل... ومن البداية اتفقنا على أنْ لا مدة محددة لصومي؛ فهو صوم مفتوح ومتواصل كقافلة عربية متوجهة بعزم ومثابرة إلى صنعاء وإن طال السفر!...

لقد قررت القيام بهذه التجربة بعد تأمل طويل وتفكير جذري قلب كل مكتسباتي الفكرية رأساً على عقب. وقد ترددت كثيراً ولشهور طويلة حتى نضجت عندي الإرادة القوية لتنفيذ هذه النقلة الرائدة في التواصل مع من راحوا.

كثيرون خاضوها قبلي وكتبوا عنها أوصاف وخلاصات رائعة، وإن كانت منقوصة وجزئية، وقد شجّعتني بحوثهم على التقدّم إلى الدكتور برنارد كما يتقدّم الفتى لخطبة معشوقته وفاتحته بتودد وحاولت كسب عطفه وعنايته، فتفهم بسكينة لوعة المشتاق لرؤية وجه أمه. وفي خضم ذلك أصبحت بيننا علائق ووشائج تتخطى حدود الطبابة النفسية العادية.

إنها وشائج تصل إلى مستويات روحية موغلة في الغموض ويتعسّر وصفها. ولتقريب ذلك إلى أذهان العامة أقول دون تردد إن صلتي به صارت تشبه علاقة المريد بشيخ الطريقة في التصوف الإسلامي.

الدكتور برنارد إنكليزي بارد الطباع، قليل الحديث، يفضل الإصغاء ولا يملّه، وقد أدار خلال عشر سنوات متتالية حلقة علمية تضم كوكبة من صفوة علماء الدنيا يختلط فيها أهل الميتافيزيقا بأهل بالطب الحديث الذي هو ميدان تخصصه الأصلي.

برنارد اهتمّ طويلاً بتدريس جراحة الدماغ في جامعات عديدة قبل أن يتلقّفه البحث العلمي ويتفرّغ كلياً لدراسة لحظة التقاء الفلسفة بالطب، أي لحظة الموت، وقد ألّف كتباً قيّمة في هذه الظاهرة المقيتة والحتمية، وما زال، رغم تقدّمه في السن، يعمل بقوة الشباب غير مكترثٍ بسبعة عقودٍ ونيف من العمل المتواصل.

يرفض برنارد التعاون مع مرضى القلب والسكري والمسنين و... المختلين نفسياً، ويمتنع منعاً باتاً عن إخضاعهم لهذه التجارب مخافة المساءلة القانونية.

تعرّضت تحت إشرافه المباشر لفحوصات معمّقة خلال سنة كاملة من الجلسات النفسية، وقد أثبتت كلها نموذجية صحّتي وتوازن قدراتي النفسية وسلامتي من كل العيوب والتشوهات الذهنية.

ثم استغرق الفحص الفيزيولوجي أسبوعاً كاملاً. وأُمهلت شهراً بالتمام والكمال للتفكير في قراري.

بعد تلك المدة وتجديدي للرغبة في خوض التجربة تمّ تجهيز غرفة وفريق من الأطباء المتطوعين لمرافقتي والعناية بي.

وقّعت بطيب خاطر الأوراق القانونية التي تُبرّئ ذمّة الدكتور برنارد من أي مسؤولية جنائية عمّا قد يحدث لي، وهي استمارات تقليدية لكنها مرعبة قليلاً، إذ فيها خانات يجب أن أضع فيها عنوان من يجب الاتّصال به في حالة حدوث تعقيدات صحية أو وفاة مفاجئة، وليس لي في هذه الدنيا من قريب بالمعنى المتعارف عليه كزوجة أو ولد أو أخ.

كل صلاتي بعائلاتي المختلفة منقطعة منذ زمنٍ طويل، حيث درج أخوالي على مقاطعة أمي في حياتها وبعد استشهادها واعتبروها وصمة عار على جبين السلالة!

من جهة أخرى لم أتعرّف إلى أهل أبي – القانوني – إلاّ متأخراً، وهم أناس فردانيون ومنكفئون وليست لي بهم أي صلة حقيقية، بعد أن سعيت لمعرفتهم وخيّبوا أملي فيهم. فقد صدمني عدم احتفائهم بي، ولا غرابة في ذلك فهم فرنسيون أجلاف تقف بيني وبينهم حواجز ثقافية سميكة وجذرية.

أما أهل والدي – البيولوجي –، فرغم معرفتي الوطيدة بهم فلا مكانة له ولا لهم في قلبي، حيث اكتشفت أنهم يعبّرون لي عن قرابتهم في وقت الحاجة والحاجة فقط.

لقد بلغني أنهم ينكرون نسبتي إليهم في بعض الأماكن ويعترفون بها أمامي بدافع الطمع، وقد كلّفتني نوباتهم العاطفية الزائفة أموالاً طائلة، وكل ذلك حصل قبل أن أدرك، بحكم التجربة والسنّ، استحالة شراء المشاعر البشرية، لذلك انتهيت إلى صرف النظر عنهم وتجنّبت بقوة أن يكونوا في مجالي البصري!

لذلك يمكن القول دون مبالغة إنني شخص مقطوع من شجرة.

بعد لحظة تفكير سجّلت اسم ورقم هاتف صديق لي يعيش في مدينة القوارب بموريتانيا ثم كتبت وصية قانونية تسمح له وحده بالتصرف في ممتلكاتي من بعدي وهذا أمر غريب لأن صديقي القابع في القوارب ليس شخصاً أعرفه منذ فترة طويلة.

في الحقيقة لم أقابله سوى مرتين فوق السفينة – العبّارة التي قطعت بها نهر السنغال ذهاباً وإياباً في آخر رحلة لي هناك منذ شهور قليلة، ولا أعرف عنه سوى اسمه ورقم تلفونه ومحل عمله.

إنه مجرد عامل بسيط يهتم بحقائب المسافرين وإجراءات سفرهم في مرسى القوارب. لكن ما جعلني أتذكره الآن هو بريق غريب لمحته في عينيه لحظة ذكره عرضاً اسمَ أمي رحمها الله!

حصلت لي معه صدفة غريبة خلال ركوبنا العبّارة، وكان يحمل على ظهره حقائبي مقابل أجرة بسيطة، وكاد اهتزاز المركب أن يفقده توازنه وأن يرتمي في حضن إحدى الراكبات دون قصد، فراحت تصرخ وتشتكي من ملامسته الطفيفة لها قائلةً:

– أنت حرطاني[1] سمين... كيف تجرؤ على ملامستي!

لقد كانت سيدة منقّبة، قمحية البشرة، تفوح منها روائح متناقضة اختلط فيها العطر القوي بالعَرَق، وهي مكتنزة كنسخة موريتانية للتاجرة الإفريقية المحدثة النعمة «ماما بينز» كما يسمّونها في غرب إفريقيا.

لقد كانت متلفعّة بملحفة مزركشة برسومات وألوان صارخة، وعلى عينيها نظارات شمسية سوداء، وفي أصابعها خواتم قبيحة، وعلى رسغيها أساور من ذهب، وكان مظهرها المتبختر يشي بكل أنواع الغرور والطبقية، وربما تصوّرت أنّ هذا الحمّال المسنّ مجرّد متجاسر وقح يريد مداعبتها والتمتّع بمباهجها دون إذنٍ منها مغتنماً اهتزاز السفينة وحالة الازدحام الودّي المعهودة في حالات التجمّع القسري للبشر، وهو تجمّعٌ يخلط الناس ببعضهم بعضاً ويساوي فيما بينهم دون النظر إلى طبقاتهم وألوانهم تلبيةً لحاجة مشتركة وملحّة كعبور النهر نحو الضفة الأخرى.

التقط الحمّال شتائمها العنصرية ووضعها في نطاقها ونسقها الأنثوي المليح، لذلك لم يردّ عليها بشتائم عرقية أو طبقية بل راح يشاكسها كولدٍ غضّ، وربما جعله اتّهامها إياه يتذكّر فحولة الشاعر الراقد في كلّ الموريتانيين فقال مبتسماً في سخرية:

– حسك اصه عدتي منينة.[2]

---

[1] شرح الحرطاني تقال للعبيد السابقين والموالي واغلبهم فاحم البشرة

[2] أي: وكأنك أصبحت منينة!

هكذا تلفّظ اسم أمي بكل براءة وعذوبة فقدح كلامه زناد غصّة حبيسة منذ زمنٍ طويل في صدري. حاولت تمالك نفسي وكظم لواعجها وتمكّنت من مواربة دهشتي، ثم استجمعت قواي وسألته مداعباً ومستفهماً عن منينة هذه التي يتحدث عنها، فقال:

– إنها أجمل نساء العالم... الله يرحم منينة بلانشيه!

ثم التفت نحو النهر مطرقاً وأمسك بيديه قضيب الحاجز المعدني للسفينة وقد ارتسمت على محياه سمات الحزن وعلامات الفراق، وكانت السفينة – العبّارة قد بدأت رحلتها منذ دقائق وكان صوت محركها يصهل بقوة كجوادٍ منهك، وخلفنا تبدّت «القوارب»؛ تلك البلدة الشجية ذات الأمجاد الغاربة؛ مضفيةً لمسةً إضافية من الحزن على المشهد، فاقتربت منه برفق وقلت له بصوتٍ مرتعش لكنه مسموع:

– هل تعرفها؟... هل تعرف منينة؟

ابتسم وقال:

– إنها من أهلي وهي من جاء بي إلى هنا. لقد كنت أهتمّ بحديقتهم أيام كانوا هنا ثم انتقلوا وتركوني ورحلوا... قبل وفاتها بشهر واحد التقيتها في سان لويس.

توقّف عن الكلام متنهّداً، فاقتربت منه ولاحظت أنّ دمعتين خطّتا طريقهما على صفحة وجهه المجعّد فربتُّ على كتفه مواسياً، فقال بصوتٍ خافتٍ متقطّعٍ مفجوع:

– منينة رحمها الله كانت أجمل من أن تُدفن في باطن الأرض... لقد ذهبت إلى السماء مباشرةً.

في طريق العودة من داكار هاتفته فجاء مهللاً فرحاً وحمل حقائبي وساعد في كل إجراءات السفر. حاولت جرّه للحديث عن منينة فلم يكثر الحديث عنها ولم أبالغ لأنني لم أكن أريده أن يستنتج علاقتي بها.

عرفت أنه من نفس القبيلة التي تنحدر منها والدتي، وأنها استخدمته في العناية بحديقتها لفترة قصيرة حين كان أبي – القانوني – حاكماً للبلدة، وكل ذلك وقع قبل مولدي بخمس سنوات، وهو لا يعرف أفراد عائلتها المقرّبين ولا يذكر حتى أسماء إخوتها.

أكرمته بمبلغٍ مالي محترم أدهشه قليلاً، ولم أهاتفه بعدها إلاّ مرة واحدة، لكنني أحببته رغم بساطة روابطه بوالدتي، بل أحببته أكثر من أيّ أحد آخر من معارفها الكثر الذين التقيتهم على مسرح الحياة، ولست أدري لماذا تذكرته دون غيره من الناس وأنا أوقّع وصيتي في هذا الصباح المطير في عيادة الدكتور برنارد ببروكسل!

بعد توقيع الوثائق دلفت إلى المصعد ودلف معي الدكتور برنارد وتوقف بنا في الطابق الخامس والأخير من نفس العمارة، وهو طابق الصيام الذي تكلم عنه كثيراً برنارد في كتاباته الشهيرة وتحدث عنه أيضا بصوفية تنطق عسلاً كل من سبقني لهذه التجربة. وقد بدا الطابق عادياً وبسيطاً، وهو عبارة عن غرفة وصالون صغير وردهة استقبال ومرافق وقاعة تشبه قاعات الحجز الطبي حيث زوّد سريرها بأجهزة التنفس الصناعي وعلى جوانبها تناثرت بعض المعدات الطبية.

يقضي الصائم أوقاته بين هذه القاعة والصالون المزود بجهاز ستيريو لقراءة الأقراص الصوتية، ويمنع التدخين والأكل بتاتاً في هذا الطابق، ويستخدم الغرفة الطبيب المناوب، وهي غرفة يتبادل عليها فريق الدكتور برنارد، ولا يحق للطبيب المناوب محادثة الصائم إلا في الضرورات كساعة معاينته.

تتميز الشقة بإضاءة ضعيفة وتهوية جيدة وقد غُلّفت جدرانها بورق كتيم وردي اللون وفُرشت أرضيتها بموكيت وثير، ولولا التجهيزات الطبية البسيطة لكان من الممكن الجزم بأنها شقة سكنية مقبولة بمعايير الطبقة الوسطى ببلجيكا.

تُمنع قراءة الصحف أو استخدام التلفون أو الانترنت بتاتاً خلال التجربة، ويُسمح بالاستماع إلى الموسيقى فقط حسب برنامج يحدّده الدكتور برنارد.

سلّمت الدكتور عدتي وملابسي ففتح صندوقاً حديدياً للودائع ليضعها فيه، ثم قال لي:

– اكتب ملاحظاتك أو سجّلها صوتياً على جهاز التسجيل، وحاول التركيز بقوة، وإذا ظهرت لك أي هلوسات بصرية تذكّر أنّ ذلك مؤشر جيد يؤكّد نجاح مسعاك وضاعف التركيز وستصل إلى ما تريد. ثم انتبه دائماً ولا تنسَ أنّ تكرار أي شيء سيستجلبه بصرياً.

ابتسم وأعاد إلي مسبحتي وقال إنها ستساعدك، ثم أغلق صندوق ودائعه.

لحظة خروجه من الطابق، وكنت قد لبست بيجاما قطنية ناعمة كمن يتحضّر للنوم، ربت على كتفي مشجّعاً، فتفرسّت ملامح وجهه عن قرب واكتشفت أنّ بؤبؤ عينيه صارت تغطيه عدسات زجاجية تحت نظارات طبية واستغربت وجود عدسات مع نظارات مثبتة فوق أنفه المعقوف والحادّ، وكانت صلعته تعكس في صفرتها بريقاً ما، أو هكذا خيل إليّ، لكنه قطع تفرسّي لملامحه المحيّرة وأردف قائلاً:

– أنا على يقين من أنك قادر على هذه التجربة التي ننتظر منها الكثير من الكشوفات التي نحتاجها لإكمال بحثنا المضني عن حقيقة التواصل مع الجانب الآخر!

دخل المصعد... كبس الزر وأغلق باب المصعد ونزل، فعدت إلى القاعة وتمدّدت على السرير وكانت الستائر مفتوحة وكان رذاذ مطر بروكسل يرسم على زجاج النافذة أشكالاً شفافة سرعان ما تختفي وتتشكل أخرى مكانها في تلاحقٍ عبثيٍّ منتظم.

ثم خطر لي أنّ الدكتور برنارد يخفي شيئاً ما، وحيّرتني عدساته ونظاراته!

أمضيت وقتاً طويلاً في تذكّر بداياتي معه ومسار علاقاتنا خلال السنة الماضية وكيف نصحتني صديقتي سيلفي بالتعرف عليه وقد خاضت قبلي بسنوات نفس التجربة العجيبة، وبواسطتها تعرّفت على برنارد ومريديه الكثر، ولم أندم على ذلك، فهو منهل عجيب يأتي بكلّ محدثة بكر، ويترك عند جلساء حضرته الكثير من الأسئلة وقليلاً من الأجوبة.

عندما حلّ الظلام حاولت أن استعيد ذكرياتي عن أمي فلم أجد شيئاً يذكر... لم أتذكر سوى لون ملحفتها النيلية الغامق وزرقة بقعةٍ صغيرة من صبغة الملحفة وقد تربّعت في اختلافٍ لونيٍّ بهيج على أنفها الأشمّ المطلّ من وجهٍ صبوحٍ وضّاء. وشرعت أتصوّر حالي لو لم تسافر أمي وتتركني على باب الله كيف كنت سأكون؟ وكيف كان سيكون شكلي الآن؟

أحسست بالحزن الشديد فلقد كنت وما زلت محلاً لخلاف قانوني بشع حمل إلي الكثير من ازدراء الناس واحتقارهم، وكيف لا وأنا ابن الغرابة الأول ونسل الفضيحة بامتياز.

كل أهل نواكشوط القدماء ما زالوا يهمسون بمجريات المحاكمة المسرحية التي انعقدت حول مصيري بعد استشهاد منينة بلانشيه.

أنا لا أذكر تلك المحكمة، لكني عرفت عبر معاينة الملف رقم 032 من سجّلات الغرفة المدنية في محكمة نواكشوط الابتدائية أنّ قنصل فرنسا قدّم عريضة يطلب فيها استخدام القوة العمومية لحمايتي ويلتمس ترحيلي بغية وضعي في دار أيتام فرنسية. وقد اعترض حارس منزلنا على الأمر بعريضة حررها الأستاذ بوكار سيديبيه بحجة أنه زوج أمي وأنه والدي الشرعي وله على ذلك شهود جرّد قائمة بأسمائهم في عريضة موكّله.

كما قال في المحضر، الذي احتفظ بنسخة منه هو الآخر، إنّ منينة بلانشيه قد طلّقت زوجها الفرنسي قبل زواجها منه بسنة كاملة وأنها اكتتبته قبل الزواج بستة شهور حارساً لها!...

لقد كان حارساً وزوجاً شرعياً وبموافقة وتواطؤ طليقها الذي لم تطرده من البيت بحجة صداقة ومودة بينهما وربما بسبب الممتلكات المشتركة في موريتانيا وفي السنغال وباريس. وقال إن اسمي ليس جوزيف بلانشيه وإنما أحمد ولد خيبوزي، وقال وقال... وأرفق العريضة بصور غرامية لهما معاً وهي

تلبس النيلة[3] وعلى شعرها جواهر العروس. وله أيضاً، على ما يزعم، شهود غير عدول وقّعوا له إفادة جماعية أقروا فيها بحضورهم العقد واسم العاقد.

انتهت الجلسة القضائية في يوم الثامن من أبريل 1965 بصلح غريب بين القنصل الفرنسي والمدّعي الموريتاني يقضي بتركي تحت رعاية المدعي الموريتاني بإشراف من القنصلية الفرنسية حتى التحقق من أقوال الطرفين ومعرفة رأي المتخصصين في القانون الدولي الخاص بسبب وجود تعارض في قوانين البلدين ناتج عن جنسيات المعنيين وقوانين بلد المقرّ وتناقضها مع المعاهدات بين البلدين وكيفية نقل الصلاحيات القانونية بين الدولة المستعمرة والدولة المستقلة.

منع هذا الصلح المتعهد الموريتاني من التصرف في ممتلكاتي، وتمّ وضع عوائد بوليصة التامين عن أبوَيّ في حساب بفائدة في خزانة الدولة الفرنسية بنواكشوط تصرف منها شهرياً نفقات رعايتي ويُترك الباقي مجمّداً حتى بلوغي سن الرشد. ورغم ذلك فقد صودرت بعض ممتلكاتي بفرنسا والسنغال تباعاً بحجج واهية منها الجباية وحقوق الدولة في الميراث، واستطاع والدي الموريتاني سلب بعض ممتلكاتي العقارية في موريتانيا عبر عمليات احتيال قضائي وعاطفي تعرضت لها خلال السنوات القليلة التي أعقبت رفع الحجز عن ممتلكاتي.

هذه المصالحة اللاأخلاقية واللاشرعية جعلتني شخصاً غريباً وممزقاً نفسياً، وقد تلقيت إثرها تربية مؤسفة وقاسية حيث عهد بي المدّعي الموريتاني إلى والدته، أي جدتي البيولوجية، ولا أظن أن التنازلات الفرنسية التي تشبه حالة تفريط بحقي كمواطن فرنسي كان من الممكن أن تقع لو كان في فرنسا والفرنسيين إحساس عائلي بالمعنى الإفريقي للكلمة.

لعل من ألقى نظرة بسيطة على معاهدات الاستقلال بين فرنسا ومستعمراتها السابقة سيفهم روح الاستقالة والتنصّل التي طبعت حركة الاستقلالات المتسرعة، وهي روح مستهترة راح ضحيتها الكثيرون من ذوي الأصول الفرنسية فما بالكم بحالتي وأنا موضع الشك والرهاط[4] منذ اللحظة الأولى؛ فصور السيد باتريك بلانشيه تؤكد أنه كان أشقر الشعر أزرق العينين وغيرها من القسمات التي لم يورّثها لي كما ورّثني اسمه وجنسيته وأمواله!

من القرائن السخيفة أيضاً التي ساقها والدي في دعواه واستأنس بها القضاء هي ثبوت عقم أبي! فقد زعم والدي أن زواج أمي بأبي استغرق قرابة العقدين ولم تنجب منه قط، وهذا ما دفعها إلى التفكير في زوج آخر، وليس ذلك مستغرباً في مثل هذه الحالات، ولم يكن عند الطرف الفرنسي من حجة سوى

---

[3] النيلة قماش مصبوغ بطلاء نيلي او ازرق غامق وهو لبس العروس عند عرب وطوارق الصحراء الكبرى

[4] الرهاط تقال لنوع من زيجات الجاهلية تنكح فيه المرأة عددا من الأزواج ويلحق فيه المولود بأكثر الأزواج شبها

وجود عقد زواج مدني، وهو عقد باطل في القوانين الموريتانية التي لا تسمح بالزواج المختلط ولا تعترف بالزواج المدني وتكتفي بالراجح من مذهب إمامنا مالك بن أنس.

بناءً على ذلك كان بمقدور القاضي الموريتاني الحكم ببطلان العقد المدني المكتوب بين مسلمة وكافر وتثبيت العقد الشفوي العرفي بين المسلمة والمسلم. لكنّ شيئاً من ذلك لم يقع، فالطرف الفرنسي اعتبر نفسه منتصراً بتثبيت فرنسيتي، وهي لا تتنافى في قوانينهم مع موريتانيتي. والطرف الموريتاني اعتبر نفسه منتصراً بحكم رعايتي والاستحواذ عليّ، وبما أن عائلة الأب الفرنسي لم تعبّر عن أدنى اهتمام بقضيتي توقّف الموضوع على صلح مؤقت حتى استكمال الأدلة في جلسة أخرى، ومع الوقت تحول المؤقت إلى دائم وأصبحت جوزيف بلانشيه وأحمد ولد خيبوزي في نفس الوقت. وأصبح باتريك بلانشيه هو أبي الذي لم أعرف ويوسف ولد خيبوزي هو والدي، والفرق كبير جداً لغةً ومجازاً بين الوالد والأب!

حين أتذكر زيارات قناصل فرنسا المتعاقبين لي خلال طفولتي أتذكّر كم كان ذلك يخجلني، وكم كنت أستغرب أن والدي وجدتي كانا يفرحان بمقدمهم وكيف كانا يتعمدّان إظهاري بملابس نظيفة أمامهم، وحين يغادرون أتذكّر أيضاً كيف كنت أعود إلى وضعية الطفل المعذب والمضطهد ومصدر العار للعائلة.

لقد كان يطربهما التهامس حولي وتعييري وأحياناً المساس من عرض والدتي وتحقير ذكراها، ولم يكونا مع كل ذلك يستطيعان التخلص مني رغم أحقادهما وشتائمهما لأنني كنت المصدر الرئيس للرزق لديهما، وقد انتقلت نظرتهما السيئة تجاهي إلى كل من عرفهما.

بكل وضوح حملت معاناتي معي في حلّي وترحالي، وحين وصلت إلى سنّ المدرسة صار اسمي الغريب محلاً للتندّر والمماحكة، وصرت موضع نظرات الازدراء والعنصرية. وقد تعمّد والدي الإبقاء على اسمي الفرنسي نزولاً عند رغبة القنصلية التي تهدده بانتزاعي منه وتوقيف الصرف المالي لمستحقات الرعاية المخصومة من أموالي إذا هو لم يحافظ على اسمي في سجّلات المدارس الموريتانية.

وما زال يعتبر ذلك مكرمةً خصّني بها دون ذريته المتفرقة والبائسة، وكثيراً ما ذكّرني بأنه تلاعب بفرنسا واستحوذ على أوراقها وأموالها لمصلحتي.

إنه رجلٌ أفّاق ونصّاب محترف، لكنه لا يعرف أنه جرحني بدهائه وخبثه وكبّلني بعارٍ ثقيل يصعب التخلص منه في مجتمع متخلف ومتقوقع مثل المجتمع الذي ترعرعت فيه.

لقد كانت جدتي – رحمها الله – سيدة بشعة لا تخفي مشاعرها نحوي، بل كانت تعاملني بقسوة، وهي عجوز عرجاء مكسّرة الأسنان تحبّ الحديث عن أجدادها المغاوير وأيامهم، وأفضل رياضاتها دون خلاف كان السبّ والإقذاع، وكان أهل «لكصر» بل جلّ أهل نواكشوط يخافون صولاتها ويسمّونها بـــ«المسعورة»؛ فالناس في عرفها نوعان: أبناء الفرسان المحاربين والخدم فقط!

وحتى أبناؤها – وهم يقولون إنهم من سلالة النبي صلوات الله عليه وسلامه – كانت تعتبرهم دونها في المقام وتكرّر على مسامعهم لحنها الأثير كل حين قائلةً:

– لولا خوف أمي أن أنقطع دون ذرية لما قبلت الزاوج بالمرحوم والدكم!

لقد ورث والدي منها نفس العنجهية الزائفة وحب المال لكنه كان ضعيفاً أمام سطوتها، لذلك كثيراً ما كان يطلّق ويتزوج؛ فقد كانت أمه الزعّاق تحب تزويجه وتطليقه، غالباً لتثبت لنفسها أنها قوية ومطاعة!

كان في رعايتها حفيد آخر في سنّي اسمه عثمان، وكانت تفضّله على الجميع وتذكّرنا أنه حفيدها وابن عمها في كل وقت، وقد التحق بالعائلة بعد سفر أمه إلى «بير أم كرين» صحبة زوجها الثاني الذي تفخر به هي وأمها، وهو مجرد عسكري وضيع ذو رتبةٍ حقيرة، ولا أعرف كيف أحبته إلى الحدّ الذي جعلها ترمي ابنها الوحيد بيننا بفظاظة حتى ولو كان محل ترحيب من جدتي، وتلك قصة أخرى ربما جرحته كثيراً وكنت أذكّره بها كلما أطال لسانه نحو أمي وزواجها بالنصراني الكافر.

مع الوقت والسنوات ازدادت حظيرة العائلة بشلّة كبيرة من الأولاد والبنات، وكانت جدتي دوماً تذكّرني بنسبهم وحسبهم وتذكّرني، بسبب ودون سبب، بالشكوك التي تحوم حولي مولداً وقضاءً وقدراً!

من عباراتها الجارحة أذكر تكرارها مثلاً كانت تغمز بعينها كلما نطقته وهو: «الشريعة تقطع وترقع»، وهو مثل تستخدمه للسخرية مني وكأنني بلاء نزل بدارهم وتجرّعوه على مضض وبقوة القانون. وكنت في ألمي وانكساري أتساءل: لماذا كل هذه القسوة منها؟ وهل فرضت نفسي عليهم أو سعيت للانتساب إلى عائلتهم؟

مع الوقت، وحين اكتشفت الجهود الجبّارة التي بذلها أبي من أجل انتزاعي من فرنسا، أحسست بكثير حنقٍ عليه، وازداد حنقي سعيراً وتفاحش حين اكتشفت أنه لأسباب مالية قبل وتكيّف مع نسبتي إلى غيره حتى ولو عهدت إليه المحاكم رعايتي.

في قضايا النسب لا يوجد حلّ وسط!

محنتي هي حلول الوسط، ولعل ذلك ما جعلني راديكالياً وحقوداً وشرساً.

أمضيت اليوم الأول بسهولة في مهجعي. وفي مساء اليوم الثاني تباحثت مع الطبيب المناوب وناولني ثلاث حبات تقوية وحقنة من مادة تساعد على الارتخاء وقنينة ماء، وحين أحسست بالماء يبللني كدت أطيش وغمرني شعور غريب بالخور والحاجة إلى سيجارة أو قهوة أو أي شيء ساخن، لكنني تذكرت ما اعتزمته من خوض تجربة السفر في تلافيف الذاكرة فرحت أكرّر اسم والدتي وعدت إلى سريري وفي يدي المسبحة وقد لفّني نوعٌ من الخدر المخلوط بالحمّى والصداع، لكنّ كل ذلك زادني عزماً على مواصلة الرحلة.

نمت ثم استيقظت بعد ساعتين أو ثلاث، وكنت في نومي عرضةً لكوابيس شتى منعتني من التركيز، فاستجمعت كل قواي وقررت أن أتخيل نفسي وأنا ألبس ملابسي، وأنزل بالمصعد، وأخرج من العمارة، وأقطع الشارع، وأعبر إلى الضفة الأخرى... مرات ومرات.

في كل مرة كنت أفقد تركيزي الذهني بسبب عارض عابر كتذكر تفاهات دنيوية بسيطة أو بسبب الرغبة العارمة في القيام بحكّ أنفي أو فرك عينَيّ. ثم، ودون سابق إنذار، لمحت نقطة ضوء أزرق ترقص فوق حاجبي الأيسر، فحرّكت رأسي يميناً ثم شمالاً، وظلّت بقعة الضوء تتحرك معه محتفظةً بنفس المسافة وكأنها جزء ثابت لكنه غير مرتبط عضوياً بي مع أنه موجود في منظومتي البدنية.

ساعتها أخذت أصوّب بصري بقوة نحو نقطة الضوء الأزرق، فشرعت تتمدّد وتكبر ورحت أتدحرج نحوها بهدوء على أنغام موسيقى خافتة بل ربما حزينة، إذ فيها كثير من همسات العابرين على رصيف الذكريات المقصية والبعيدة... وعمّني ضوء شفاف فضي أو بلوري وكان ما كان!...

في ثلاثينيات القرن الماضي، في صحراء موريتانيا، سطع نجم مختار الأعيور. والأعيور، كما هو واضح، صفة تحقير وتصغير لمختار الأعور.

لقد خسر مختار عينه اليمنى وهو بعد في عزّ الشباب بسبب عراك مع أسد هصور كان يمنع الناس من ورود منهل ماء في قفار موحشة وبعيدة، وقد تغلّب مختار على الأسد بمهارة، بل بمعجزة، حيث هشّم رأسه بفأس. لكنّ جراحاً خاثرة من أظافر الأسد المتخبّط من هول الضربة شوّهت وجهه وفقأت عينه اليمنى. لذلك كان دوماً يتعمّد تنقيب وجهه البشع، وما زال هناك بعض المسنين الذين يتذكرون كتلة القماش الأسود التي تخرج منها فتحة واحدة يرى منها مختار العالم، وهذا هو سبب كنيته أو شهرته التي تغلبت على اسمه العائلي؛ وهي كنية لم يكن يجرؤ أحد على نطقها في حضوره، حيث كانت له في لحظة ما من تاريخنا سطوة ورعب كبيرين.

مختار الأعيور هو شيخ قبيلة المناذير دون منازع، وقد آل إليه الأمر بسبب دهائه ومكائده الكثيرة التي اكتسبها على مرّ السنين كقاطع طريق وكمخبر متعدد الولاءات، وقد فرض في مجابات[5] «آوكار» البعيدة سلطته ودعمها بخمسين بندقية آلية يملكها أبناء عشيرته، وحين كانت تنحبس الأمطار كانوا يهرعون إلى «حومات أفلة» يعيثون فيها فساداً لفترات قليلة، وفي كل مرة كان دهاء الرجل ينقذه من عواقب أفعاله الوخيمة.

فقد كثر أعداؤه واستطاعوا إقناع الفرنسيين بتأديبه ومعاقبته وكان يعوزهم دوماً الدليل الجنائي على أفعاله المتواترة التي تحدث حين يجنّ الليل غالباً، وغالباً بسرعة وكوميض البرق كانت تختفي قطعان من مواشي الناس وتدخل المجابات الكبرى، ويظل مختار الأعيور مبتسماً بل يظهر التضامن مع ضحاياه الكثر ويبحث معهم عن الجناة!

في إحدى المرات وصلت قطعان منهكة إلى «واد نون»، ولم يُعلم بالأمر إلا بعد مرور سنتين على حدوثه، فاعتُقل مختار ورجال حاشيته ثم أطلق سراحهم بسبب غياب الأدلة، لكن حاكم أنيور في أسفل سهل أفلة أمر بمراقبته وتضييق الخناق عليه.

---

[5] المجابات هى الصحراء الخالية الموجودة بشرق موريتانيا وتسمى ايضا المجابات الكبرى وتشبه الربع الخالي في الجزيرة العربية

مختار الأعيور، رغم كثرة مشاغله، ظلّ يحب المخاطرة ويتشهّى المناورة والمكيدة. وذات مساء قرر أن يضرب ضربة العمر، فرسم خطة رائعة يردّ فيها على مماحكات حاكم أنيور وعلى شيخ قبيلة تجمورت الذي يناصبه العداء ويؤلّب عليه حكّام الكفار. حيث أمر عصبةً من خيرة عناصره يقودهم نجله البكر محمودي ويساعده شقيقه إبراهيم بالتوجه خفيةً إلى الأحراش المجاورة لانيور، ثم أطلق شائعةً مفادها أنه يرتّب سفر قافلة متوجّهة إلى تيشيت، وأنّ رجاله قد ابتاعوا شحنةً من الدخن في سوق تنبدغة. ثم انتجع مختار بمخيمه شمالاً حتى اقترب من قلعة تامشكط، وفي يوم متفق عليه سيخبر مختار حاكم تامشكط أنه علم بخبر خطير مفاده أنّ رجالاً من قبيلة تجمورت سيهاجمون قلعة انيور ويقتلون من فيها انتقاماً لشيخ طريقتهم المنفي بعيداً في صحراء الساحل.

أخبر مختار حاكم تامشكط بالغزوة في الوقت الذي يفترض فيه أن عناصره سيباغتون بعده بقليل قلعة انيور، وهو على يقين من أنّ حويكم تامشكط، الذي تلقى الخبر في آخر العصر ولم يظهر أي حماس بل شارك ضيفه في صبّ اللعنات على قبيلة تجمورت وشيخهم الوثني، لن يستطيع أن يخبر زميله في انيور بشيء لأن المسافة الفاصلة بين القلعتين تتطلب سفراً حثيثاً على الخيل ليومين كاملين وسبع ساعات من الاندفاع الجنوني في سيارة الناقل الشامي سمير، هذا إذا تصادف الأمر مع مرور الشامي بتامشكط، وهو أمر غير وارد لأن القلعة ساعة دخول مختار الأعيور متبختراً ورافع الهامة لم تكن فيها أي عربة.

دخل صحن القلعة واثقاً من نفسه وخرج منتشياً وسعيداً فقد انطلت الحيلة على النصراني الساذج!

مخطط الأعيور رائع وسينهب فيه رجاله كل ما في القلعة ويقتلون نصراني انيور المقيت ويختفون بعدها في جوف الصحراء... نعم سيختفون مدة كافية لتصريف الغنائم والعودة ببضائع مغربية مكانها بعد مرورهم بتشيت ذهاباً وإياباً، وقد احترز كبيرهم واحتاط لكل تفاصيل العملية بذكاء ودقة وسيّر قافلةً حقيقية من المناذير نحو تيشيت بقصد التمويه المتقن.

لقد كان مختار سعيداً جداً لأنه لا محالة سينعم بثمار عمله وسيضع رجاله اليد على خزينة القرية السودانية العامرة، وسيلقّن فرنسا درساً في الدهاء المرعب، وسيدفع ثمن جريرته خصومه من تجمورت، وهكذا، وكالعادة، سيضرب الأعيور عدة طيور بحجرٍ واحد!

لكن تجري الرياح أحياناً بما لا تشتهي السفن... فقد أغفل البدوي الشرس وصاحب الذكاء الفطري في حساباته الساذجة وجود اختراع سحري عجيب يدعى التلغراف؛ فقاطع الطريق العتيد لم يكن في سابق معلومه أنّ الكافر هنريش هرتز قد اخترع منذ 1888 تقنيةً لئيمة ستنسف مخططاته الجهنمية بسرعة البرق.

مختار يعرف أنّ الفرنسيين بحوزتهم بنادق جيدة، ويعرف أنّ جيشهم في خاي له سيارات قوية مثل سيارة سمير، لكنه لم يسمع البتّة بالتراسل بالبرق، وكيف يصدّق ذلك وهو يرى رؤساء قلاعهم يكلّفون

المسافرين بنقل طرود الرسائل بينهم في كل حين، بل سمع كثيرين من رؤساء القبائل والتجار يفاخرون بحمل «الكوريه»، وقد تمكّن من رؤية هذه «الكوريه» وعاينها ووجدها مجرد رزمة من الأوراق الموضوعة في مظروف مختوم بالأحمر.

نزلت المصيبة بسرعة على رؤوس المناذير وعلى كتلة القماش التي تلفّ رأس كبيرهم، حيث أبرق حاكم قلعة تامشكط لزميله بالهجوم الوشيك، فتحضّر له حاكم انيور وسقط رجال المناذير الأشداء في كمين محكم وقتل جلّهم بمن فيهم محمودي وإبراهيم وأصيب آخرون بجراح متفاوتة الخطورة وفرّ أغلب الجرحى إلاّ غلاماً واحداً يدعى يوسف، فقد سقط في الأسر واعترف فور اعتقاله بكل شيء، وبطبيعة الحال تمّ توقيف مختار الأعيور وما تبقى من رجال قبيلة المناذير وسجنوا جميعاً في حظيرة تامشكط مع الحيوانات المحتجزة.

كانت الأعراف الفرنسية في مثل هذه الحالات تقضي بمعاقبة كل القبيلة التي يقوم بعض أفرادها بهكذا جنايات، وذلك عبر «تسييب» المجموعة، أي فتح باب الفوضى والاستباحة للجنود البسطاء في مصادرة أملاكهم وإذلالهم وضرب أطفالهم ونسائهم... وأحيانا اغتصاب بناتهم، ثم بعد فترة «التسييب» تأتي فترة المحاكمات المتحضرة والقضاء النزيه وصولات المحامين وجولاتهم في حلبة قوانين الجمهورية الراقية ذات الحضارة العادلة.

خلال فترة «التسييب» نُقلت عائلة مختار الأعيور، أي زوجته وابنته وثلاثة أطفال ذكور صغار في عمر الورد، أي بين السنة الرابعة والعاشرة، إلى غرفة طينية في وسط قلعة تامشكط. وكان سبب احتجازهم في القلعة هو الرغبة في كسر إرادة المتّهم مختار الأعيور وإذلاله أمامهم ودفعه على الاعتراف بكل شيء بما فيه ضلوع قبائل أخرى قيل إنها كانت تساعده في تصريف مسروقاته الكثيرة. ومن المعروف في تقاليد ذلك الزمان أنّ استباحة عائلة عربية أمرٌ مرعب يكسر شوكة كل المتجاسرين الذين يعتبرون المرأة مجالهم الحيوي الذي يجب الذود عنه بقوة، لذلك كان اعتقال الزوجة والأطفال يحمل رسالةً موجّهة للجميع مفادها أنّ فرنسا ستعاقب من يخرج عليها في نفسه وعرضه.

قلعة تامشكط مكان حصين مبني على ربوة شامخة قرب القرية التي تحمل نفس الاسم، وتطلّ القلعة على بركة ماء أو «تامورت»، وانغرست بين القلعة والقرية على المنحدر المؤدي إلى البركة زريبة مسيّجة بأسلاك من الحديد الجارح والقوي، وقد شيّدت تلك الحظيرة في ذلك المكان لسببين: الأول، كي يتمكن جميع المارة من رؤية الحيوانات المحتجزة ومعرفة ملكيتها من علامات التملك التي سجّلت عليها

بالكي؛ والأهم رؤية مصير من تسوّل له نفسه التمرّد على الإمبراطورية الجبارة، لذلك فقد كانت تستخدم كسجن جماعي مكشوف للبشر والبهائم في الوقت نفسه.

كانت عائلة مختارالأعيور تستطيع رؤيته في داخل السياج وهو يتضوّر تحت شمس حارقة بين الماعز والحمير، وكان يستطيع رؤيتهم كذلك وهم يلوّحون له بسواعدهم ويتجرّعون معه عذاباته دون حول ولا قوة.

وكان السياج محاطاً بحراس من السنغال يمتشق كلّ واحد منهم بندقية فرنسية ويلبسون ملابس مزركشة ويضعون قبعات حمراء طويلة على رؤوسهم ويتبادلون المداومة، وهم من كان يقوم بتعليف الحيوانات والناس المحتجزين، ولم يكن هناك فرق كبير بين الطعامين، وكان مشهد السجناء وهم ينحنون ليكرعوا من حوض الماء المشترك مع الدواب مشهداً أليماً بكل معاني الكلمة.

في اليوم الثاني قرر حاكم القلعة تجريد الأعيور من لثامه الشهير وتمكّن سكان تامشكط من التفرّج على وجهه المشوّه الذي يشبه وجه من تقمّصته الجن. وقد تحلّق على السياج بعض الصبية وراحوا يعيّرونه بأذنه المقطوعة وعينه المتورّمة الحمراء وقد تدلّت تحتها قطع ممزقة من لحم وجهه، وكانت فروة رأسه التي تحمل بصمات الأسد الشهير تكمل المشهد المروّع والبشع والأليم وتضفي عليه آثار ملحمةٍ سارت بذكرها الركبان.

على بعد خمسمائة متر من القلعة بين السجن المسيّج والبركة تناثرت بعض البيوت الصغيرة وفي وسطها دكاكين، وكان في البيوت بعض عيون القلعة وجواسيسها كالقاضي المحلي والترجمان والممرض وغيرهم كثير ممّن تجنّب المرور قرب الحظيرة مخافة التشفّي في شيخ المناذير.

كانت مصيبة المناذير موضع فرح وسبب سعادة لجلّ سكان أفلة باستثناء العائلات القليلة التي كانت عندها مواثيق وتحالفات مع مختار الأعيور؛ فقد فضّلت الحياد ورامت الابتعاد خوفاً من أن تطالها شبهة التواطؤ معه، وكثيراً ما كان يستصرخ العابرين على بعد ويطالبهم بالتدخل عند سيد القلعة والشهادة له بالبراءة من جناية شباب المناذير!

صرخات السجناء وأنّاتهم اضمحلّت في الأسبوع الثاني؛ فمع مرور الوقت خفت صوت مختار وتغيّرت بشرته من حمرة مشربة بصفرة وصباحة ليتحول إلى شخص فاحم ونحيف رغم أنّ الفرنسيين انتهوا بأن سمحوا له بنصب خباء يظلّه داخل الزريبة المؤذية التي أمضى فيها قرابة الشهر الكامل.

في كل مساء كان يقتاده الجنود السنغال إلى مكتب القلعة للتحقيق حول حادثة انيور ومواجهة شهادته بشهادات غيره من أفراد قبيلته والقبائل المجاورة، وفي كل يوم كان حبل المشنقة يقترب أكثر فأكثر من عنقه.

من الأسبوع الأول كان الرائد جيروم هو من يحقق في الأمر، والرائد جيروم هو حاكم دائرة تامشكط، وكان يستند في محضره على ترجمة تكروري موريتاني يدعى مختار خاليدو، ويستشير القاضي العرفي للبلدة الشيخ أحمد. ثم وصلت جيروم في الأسبوع الثالث خبرية تلغرافية مفادها أنّ وفداً يضمّ وكيل الجمهورية المساعد وقاضي التحقيق في محكمة سانت لويس سيقومان بجولة ويلتقيان أقرانهما من دائرة خاي السودانية التي تتبع لها انيور، وسيحققان مع المتهمين سوياً في تامشكط، وأنّ قراراً قد اتُّخذ في داكار يقضي باستدعاء كل الشهود إلى تامشكط لتسهيل مقارنة الإفادات.

قبل مجيء القضاة بأيام قليلة تمّ نقل المتهمين ووضعهم داخل القلعة تحت حراسة مشددة في غرف طينية، وسُمح لمختار بزيارة عائلته المعتقلة في غرفة أخرى وتمضية أوقات قصيرة معهم... ربما ذلك ما أنقذه من هلاكٍ محدق.

في داخل القلعة بيوتٌ عديدة، بل حارة كاملة: هناك منزل الحاكم، ويجاوره بيت أصغر منه يسكنه مساعده، ثم سكن العريف والسكرتير ومهجع مفرزة الجند، وفي وسط القلعة مكاتب الحاكم والمستوصف والبريد والمدرسة الصغيرة، ثم مخازن السلاح والغلال وبعض الغرف الطينية التي احتُجزت عائلة شيخ المناذير في إحداها.

يحيط بالقلعة سورٌ طينيٌّ سميك وقد فُتحت فيه مربعات خرجت منها فوهات المدافع، وفي كل ركن تنتصب منارة يترصّد منها جنديٌّ متحفّز العابرين، وللقلعة بوابة واحدة تطلّ على الحظيرة والقرية القريبة من البركة المشهورة بتماسيحها العريقة.

إنّ وجود منينة بنت مختار الأعيور، وهي في الرابعة عشرة من عمرها، في القلعة أضفى على هذا المكان «الذكوري بامتياز» شيئاً من شاعرية؛ فقد كان الحرس وأعوان الحاكم ينتبهون إلى أنوثتها المبكرة وفيهم من تودّد لها في نوع من الغزل المكشوف، وقد انسحب ذلك مع الوقت على معاملتهم لأبيها المعتقل، ولعل ذلك كان السبب الوحيد في استمراره تحت الظل في غرفة طينية مريحة بعد رجوع قضاة فرنسا، وكانت غرفته التي يقف عليها جندي واحد ملاصقة للغرفة التي توجد فيها عائلته التي كانت تتوجّس من أن يعود إلى حظيرة البهائم، وكم كان ذلك وارداً وسهلاً في أي لحظة.

بعد سفر القضاة أُطلق سراح جلّ المتهمين بسبب انعدام توافر أدلة ضدهم وتمّ التحفظ على ثلاثة رجال من المناذير كانوا في ما مضى أقرب الناس إليه، وهم عبيد الله الأجرب وابهاه وسويدي، وكلهم استُشهد ابنٌ له في واقعة انيور واعتُبروا ضالعين، وصار لزاماً عليهم المكوث مع مختار الأعيور في انتظار تحديد وقت ومكان المحاكمة.

بعد شهرين انتهت حالة «التسييب» التي تعرّضت لها عشيرة المناذير، وعاد جنود «التسييب» إلى القلعة وهم يروون قصصاً عجيبة عن مهمتهم في مضارب تلك القبيلة كثيرة النساء.

عيّن الحاكم جيروم للمناذير شيخَ عشيرة مكان الزعيم المعتقل، وعادوا أدراجهم إلى حياة بدوية على حافة أفلة المحاذية لصحراء آوكار، وسمح الفرنسيون لعائلة الشيخ المخلوع بالبقاء في كنف القلعة لرعاية والدهم الذي ينتظر محاكمة لم يتحدد موعدها بعد.

بسبب الضائقة المالية التي خلّفتها حالة الأسرة أصبحت زينب زوجة الزعيم الأسير تعمل في غسل ملابس الجنود والعساكر مقابل أجرٍ زهيد، وتحولت الجميلة منينة إلى خادمة في بيت الحاكم الفرنسي الرائد جيروم.

جيروم رسامٌ هاوٍ وفنان بالفطرة وعسكري عنيف في آن، وهو فرنسي ثلاثيني طويل القامة نحيف جداً وفي نظراته نوعٌ من الزيغ والصدود، ويحب التحدّث بصوتٍ عال يقترب من الصراخ، ويهتم كثيراً بكلبه «جاكور» الذي يتمدّد أمام مكتبه ويحرسه بقوة، وهو كلب ضخم الجثة وأكول ويشبه النمر الأرقط في توثّبه وضخامته، وكاد يقتل أحد القضاة ذات صباح لولا تدخل جيروم وصراخه.

في كل مساء، وقت الغروب، كان جيروم يتمشى ويلهث خلفه جاكور ويتفقدان القلعة من الداخل والخارج، وفي مشية الرائد تدلّلٌ جلي وفي ظهره تقوّس واهتزاز يشي ببنية غريبة لم يعرف أحد سرّها بسبب انطوائيته وتقوقعه على نفسه.

يمضي جيروم وقتاً كثيراً في مرسمه، ويستمع إلى الأخبار والتقارير دون التفات، وهو منشغل غالباً بريشته، وكانت ملابسه الملطخة بكل لون ورائحة الغليظة مدعاة للتندّر!...

جلّ رسومات جيروم التامشكطية عبارة عن مجموعة من لوحات البورتريه متفاوتة الحجم، وهي لوحات لأناسٍ من البلدة، وكثيراً ما استخدم جيروم سلطته واعتقل شخصاً ما استهوته قسماته فأجلسه عنوةً أمامه وراح يرسمه في بلاهة وشطط، وكانت علائم الذعر في قسمات المرسوم تطربه كثيراً، وكان الكلب جاكور يدرك رغبة سيده تلك ويلعب دوره كاملاً، فما إن يشعر بطمأنينة الموديل أو تبدّد خوفه حتى يزمجر ويكشّر عن أنيابه فتعود مخائل التوجّس إلى مكانها وتنشط ريشة الفنان غريب الأطوار في الحركة التصويرية.

لكلّ تلك الأسباب اتّهم جلّ سكان القلعة سيدها بالجنون والتفرّد، وكانوا يتمتمون بآية الكرسي ويتحرّزون منه ومن كلبه خيفةً ورعباً.

قد يستغرب البعض أنه، رغم تقديره لحسن خادمته وحنوّه عليها، وكثيراً ما أجلسها أمامه لفترات طويلة وراح يرسمها، لم تكن له مغامرات معها، بل حفظها بعنايته واهتمّ بتعليمها لغته وأوصى معاونيه

خيراً بها، وقد شجّعها ذلك كثيراً على التقرب منه، لكنه كان يفضّل البقاء وحيداً في قاعةٍ كبيرة نهاراً وينام فوق السطوح في العراء، ولم يكن – على الأقلّ – فظّاً مع خدمه المقربين وحرّاس بيته.

كثيراً ما كانت منينة حين تنتهي نوبات مرسمه أو حين ترتّب مائدته تتخيل أنه سيمسك بيدها عنوةً ويجرّها إلى مهجعه، بل لعلها تعطّشت لذلك وتشوّقت إليه... لكنه لم يفعل!

مع الوقت تحولت عنايته بها إلى نوع من الأخوّة العجيبة، وقد فهمت لاحقاً أنه ليس من الصنف المهتم كثيراً بالنساء، خلافاً لترجمانه الفظّ ولكثيرٍ من عساكره الذين ظلوا يتحرشون بها حتى اكتشف سيد المكان الأمر فأنهى معاناتها بحسمٍ فروسيٍّ أنيق.

حسم أمرها بعيد حادثة الجندي دمبا الذي ترامى عليها بفظاظة وكاد يقتلها كبساً على حائط المطبخ محاولاً تقبيلها بهلع تمساحٍ يفترس غزالاً.

نعم، دمبا الجندي السنغالي المتكرّش والمتخصص في تحضير الشاي الأخضر كاد يقتلها حين ارتمى عليها بكل ثقله وفقدت توازنها وانهارت بين القدور والمواعين مطلقةً صرخةً قوية نبّهت إليها من في داخل البيت، وقد سمع جيروم الصرخة في مرسمه البعيد فأتى مسرعاً، ولمّا وقف على الأمر أمر بجلد دمبا بالسوط خمسين مرةً ورميه داخل السياج مع الدواب أسبوعاً كاملاً.

ساعتها أصبحت منينة خادمة السلطان المحترمة، وخمّن كثيرون أنها فعلاً صارت محظية الرائد المنعزل والمتصومع!

استغرق مختار في الصلاة وكان يفضّل عدم محادثة الناس، وكانت منينة تمرّ عليه كل مساء وتؤاكله من بقايا مائدة جيروم، ورغم تقواه الحديثة فلم يكن يجد غضاضةً في الاستعانة بها من أجل تخفيف عذابه، فقد كان يجرّ قيوداً ثقيلة أدمت رجليه، وحين استطاعت إقناع الممرض بتضميده فرح لذلك كثيراً، وحين أخبرته أنها أقنعت الرائد جيروم بفكّ أصفاده شجّعها على التقرّب منه وقال لها:

– أنت وليّة عهدي وأنت شيخة المناذير المقبلة!

وقد أفرحها كثيراً أنه يبارك تذلّلها لأعدائه ويقدّره فاندفعت في ذلك الاتجاه بطمأنينةٍ وكياسة.

كانت منينة في أوقات الفراغ الكثيرة تحاول، بتشجيعٍ من السيد باتريك مساعد الحاكم جيروم، فكّ طلاسم الكتابة الفرنسية، وقد صُعق باتريك لونوار من سرعة فهمها.

باتريك هذا زنجيٌّ مسنّ من جزائر الأنتيل ويسمّونه صاحب الساق الخشبية، فقد بُترت ساقه اليمنى خلال الحرب الكبرى، وهو متّقد الذهن بل خبيث كثعبانٍ متحفّز، لذلك لم يغازلها ولم يثقل عليها بظلال شهوته بل احترم سرعة مداركها وقوة ذاكرتها وجعلها في شهرٍ واحد تتمكّن من القراءة.

وراحت تنطق الكلمات المسجّلة على كلّ اللافتات والواجهات ثم شرعت تتكلم بالفرنسية بخطى واثقة، وفي لحظة ما استطاعت قراءة صحيفة كاملة كانت في صالون الحاكم، وقد بهرها ذلك العالم الواعد فقررت ألاّ تتكلّم إلاّ بالفرنسية مع الجميع، وليس لها في القلعة أكثر من سبعة شهور، وقد أطرب ذلك الجميع وتندّروا عليه؛ ففي كل مرة كان على لسانها سؤال عن معنى كلمة فرنسية اكتشفتها في قراءة ما أو سمعت أحدهم قد نطقها للتو، ومع الوقت صار جلّ من في القلعة من فرنسيين وأفارقة يسمّونها الآنسة «سيه كوا؟» أو: ماذا يعني؟!

تجاوزت التنكيت حول فضولها العلمي بروح رياضية تنتزع التقدير والإعجاب، وقد خلق لها الفضول تسليةً آنستها عن الكثير من مرارة وضعها المأساوي؛ فهي قبل كل شيء تنتظر محاكمة والدها في أي وقت، وكان شبح تلك المحاكمة مخيفاً لها وللجميع وظلّ سيفاً معلّقاً على رقابهم.

أقنعت الوالد مختار دونما صعوبة بالموافقة على تسجيل أشقائها سيدي وإبراهيم وبكار في مدرسة القلعة، وساعد ذلك في تحريرها وتحرير الأم زينب من أثقال العناية اليومية بهم.

لقد كان مختار الأعيور يعتبرها ومضة الأمل الوحيدة في حياته، وكان يطلبها منها العناية برفاقه سالفي الذكر. وبدا لها والدها، رغم انكساره وحزنه، أسداً مقيّداً وعظيماً، لذلك سعت لتنفيذ ما أمكن من

رغباته، وتمكّنت وهي في الشهر العاشر من القيام بترجمة حديث جمعه بالرائد جيروم خلال تفقّده غرفَ السجناء، وكم أحسّت بالزهو والفخار في عيون والدها ورفاقه!

قال لهم جيروم إنهم سيظلون هنا حتى يتم تحديد موعد المحاكمة ومكانها، وإنه يستبعد أن تنظَّم المحاكمة في هذه القلعة، ويعتقد أنها ستحدث في كيفة ولكنه لا يعرف متى لأن هذا النوع من القضايا يأخذ وقتاً طويلاً يتراوح عادةً بين ثلاث وأربع سنوات.

حين قال جيروم أربع سنوات ضحك مختار الأعيور بقوة مستبشراً؛ فقد داخله شعورٌ مباغت بالسعادة، واستغرب الحاكم نوبة الضحك كثيراً واستفسر منه عن سببها، وهنا قال مختار:

– لم أفكر قط في ما قد يحدث لي بعد ليلتين. قولي له يا بنيتي إنّ خبره مفرح جداً بالنسبة لي!

بدا مختار مختالاً حين كانت منينة تترجم أقواله وكأنه عاد لنشر الرعب في مجاهل الصحراء، وقد تغيّرت سحنته بسرعة في الأيام التي تلت زيارة الحاكم، لكنه ظلّ مواظباً على الصلاة والتبتل، وكانت صلواته غريبة إلى حدّ ما؛ فقد كان يجهر في صلاته نهاراً وليلاً، فرضاً ونافلة!

وكان يقرأ في كل صلواته الفاتحة وسورة الصمد لأن شيخ المناذير لم يتعلم الدين كأبناء الناس الآخرين، وليس ذلك ذنبه فقد ولد منبوذاً وظل كذلك جلّ حياته، وما كان يصلي إلا مأموماً وفي المناسبات التي تفرض عليه فيها الظروف على المراءاة.

لذلك التمس من منينة أن تطلب من الشيخ أحمد قاضي البلدة العناية به، وهو من معارفه القدامى، فقد سبق واختفت مواشيه في جوف الصحراء. وقد رفض الشيخ أحمد زيارته لكن جيروم قال له بإيعاز من «محظيته» إن المساعدة الروحية للسجناء حقّ ثابت في قوانين فرنسا، فخضع له ذليلاً ومنكسراً وهو يهزّ رأسه متململاً ومتبرّماً من غرابة أطوار الحاكم جيروم وشراسة كلبه ونزوات جاريته الجديدة.

في أيام قليلة تنازل مختار الأعيور عن كل سطوته وخيلائه وتحوّل إلى تلميذ مهذّب في يديه لوحٌ خشبي طويل بقامة ولد في العاشرة وقد خطّ عليه شيخنا أحمد حروف الهجاء!

وكم تندّر صبية القلعة على الكهل المنقّب الذي يكرّر بصوتٍ أجشّ ومزعج: «أنت واقف يا ألف، وأنت تحتك نقطة يا باء، وفوقك نقطتين يا تاء»!

انهمرت الأمطار وانتهى الخريف وعاد الشتاء، وفي نهاية الصيف الثاني هبطت طائرة لأول مرة في سهل قريب يحاذي البركة ونزل منها أربعة أشخاص ذوو أشكال أوروبية ومعهم عساكر. وخلال الزيارة تقرّر نقل مختار الأعيور ورفاقه إلى سجن قلعة نواكشوط في انتظار محاكمته في سان لويس، ومرّد ذلك يعود لرفض المحامي الذي تعهدته المحكمة للدفاع عن المتهمين السفر إلى تامشكط البعيدة.

تجمهر أهل تامشكط على المخلوق الحديدي الذي هبط كالمعجزة في المرج القريب من «التامورت»، ولم يكونوا يصدّقون ما كان يقوله رجال القلعة قبل ذلك وهم يقتلعون الأعشاب والأشجار وأنهم حقيقةً يسوون الأرض لنزول طائر من الحديد!

حطّت الطائرة دون صعوبة، وبات من فيها داخل القلعة، وفي صباح اليوم التالي شوهد العساكر وهم يدفعون في جوف الطائر الحديدي شيخ المناذير ثم زمجر الطائر وتحركت وراءه زوابع غبراء وحلّق بعيداً واختفى في الأفق تاركاً منينة تتلوّى حسرةً وألماً في قلعة الحزن الكابي التي ظنّتها لوهلة فردوساً خالداً!

حاولت زينب سحب أولادها من مدرسة النصارى والعودة بهم إلى مضارب المناذير الذين تمّ استدعاء شيخهم الجديد مخيطرات الأقرع لحضور مراسم ترحيل المتهمين.

كان مخيطرات الأقرع فرحاً من تلك اللفتة الإدارية الكريمة من الحاكم الموقّر جيروم، وكان يظهر الكثير من الرفق الزائف لزينب ومنينة ويقول بين الفينة والأخرى في تلطّفٍ وسماجة: لا داعي للقلق، أنا والدكم!

يقولها وقد أغمض عينيه في تغزّل وغواية تتفصّد الأم زينب بوضوحٍ فاجر، وكان يشفع كل جمله الموجهة إلى منينة بـــ«يا بنتي»، ثم قال: «الحاكم جيروم رجلٌ فضيل وقد وعدني بطلب الحكومة الرفق في معاملة السجناء» وراح يعدّد مناقب جيروم كمن يريد نقل رسالة ما إليه!

أفلح الأقرع في استمالة الأم وتمكّن من إقناعها بترك سيدي كبير الأولاد في المدرسة مخافة إغاظة الحاكم جيروم. وحين قالت منينة إنها ستبقى مع شقيقها في القلعة لحراسته لم يمانع بل شجّع الأم على تركها قائلاً:

– هنا هي في الحفظ والصون، نتركها شهراً أو شهرين حتى تطمئن على أحوال أخيها وبعد ذلك نرى ما يليق فعله، وهي على كل حال عاقلة ومأمونة ومحل ثقتنا.

المهم والأساسي عنده كشيخ جديد للمناذير هو أن تعود زينب، عقيلة الزعيم الأسير، متعلقةً براحلته وهي تقرفص كضفدعةٍ عالقة على كفل جمله الأبلق الطويل وأن يراها كل الناس في تلك الوضعية، وسيساعد ذلك في توطيد سلطته وخنوع الكل له وقد آل إليه كل الأمر بما فيه زينب الجميلة التي احتكرها الأعيور القبيح لنفسه طويلاً... وكان له ما يريد.

قررت منينة أن تتبع خطى مختار الأعيور أينما ذهب ومهما يكن الثمن، وكانت في قرارة نفسها تعرف أن جيروم سيساعدها في ذلك لأنها لمحت في وجهه ساعة الترحيل الجوي لوالدها مخائل تعاطف

وشيئاً من إنسانية، واستنتجت بفطرتها البدوية النقية أن هناك من أرغمه على هذا العمل، وكيف لا وقد رأته بأم عينها يتودّد ويتمسّح أمام الذين هبطوا من السماء ليختطفوا مختار وينتزعوه بقوة وقسوة. وزاد فضولها لمعرفة تراتب النصارى وعاداتهم الغريبة، فقد ظنّت طويلاً أنه لا توجد سلطة فوق سلطة جيروم سوى سلطة الله، والآن اكتشفت سذاجتها وحدوده ومكانته الحقيقية.

فوجئ جيروم بعدم عودتها لمضارب المناذير ورحّب بها مجدداً في خدمته. وبعد أيام قليلة باغتته، وهي تضع له المائدة، بملتمس مساعدة للحاق بوالدها، وهو ملتمس مكتوب بخط لاتيني اجتهدت في رسمه وتزويقه، وأعانها على صياغته كل من في القلعة.

أرادت أن تبرهن له أنها تحترم لغته وثقافته، ورغم بساطة الكلمات وأغلاط النحو والإملاء وقبح الخط واعوجاجه فقد كانت حركة موفقة وناجحة أعطت أُكُلها سريعاً، حيث قال لها فور قراءة الملتمس وهو بين العطف والممازحة:

– اسمعي مدموازيل سيه كوا... سأساعدك في الذهاب إليه. في نهاية الأمر هو والدك، وحين يأتي سمير في نهاية الشهر سأتدبّر معه الأمر.

وصلت شاحنة جي إم سي الأميركية تامشكط يوم 25 مارس سنة 1937 وصعدت التلة ودخلت من البوابة وتوقفت في صحن القلعة وقد وضعت مؤخرتها قبالة باب المخزن، وكانت الشاحنة محمّلة ببضائع ومؤن كثيرة من محطة القطار في خاي.

نزل من كابينة القيادة شاب وسيم أبيض البشرة رغم شموس السهل التي لوّحت وجهه وفي يده غليون متّقد يسحب من تبغه في شراهة وينفث الدخان من منخريه وفمه، وكان يلبس بنطالاً أصفر وقميصاً قصير الكمّين أزرق اللون به مربّعات خضراء صغيرة، وقد تدلّت خصلة مبللة من شعره الأشقر على جبهته الواسعة وارتسمت دوائر من العرق عند كتفيه وفي مؤخرته.

فور ترجّله من كابينة القيادة شرع يصيح بأسماء مساعديه وهو يتفقّد بيده التي لا تمسك الغليون حزامين غريبين كان يشدّ بهما بنطاله إلى فوق ويصعدان على منكبيه ثم يلتقيان بين الكتفين المبللين بالعرق ويتحولان إلى حزام واحد ينزل إلى أسفل حيث توجد قطعة معدنية تثبّت الحزام بالبنطال.

اندفعت منينة تنبّه الحاكم جيروم في مكتبه إلى وصول سمير، وكان قلبها يخفق بمشاعر غير طبيعية تخلط بين الفرح بالسفر والخوف منه في آن واحد، فقال لها في حنوّ ورقّة الفنان:

– لا تقلقي، سيكون السفر عند العصر.

وناولها مظروفين كانا في درج مكتبه وأردف قائلاً:

– في المظروف الأول توصية لك قدّميها لأيّ سلطة فرنسية في الطريق في حال الضرورة والضرورة فقط؛ وفي الثاني مبلغ من المال يكفي لشراء تذكرة القطار حتى سان لويس وتذكرة السفر في عربات لاكومب التي تسافر من سان لويس شمالاً نحو قلعة نواكشوط التي ستجدين فيها السجناء... ولتصحبك السلامة.

راحت منينة تكيل له المديح والشكر على حسن معاملته إياها، وفي لحظة ما توقفت وقد اغرورقت عيناها بدمعٍ صادق وقالت بفرنسية تتجاوز المحاكاة: «فوزيت شيفالييه»، أي: أنت فارس... وهنا وقف جيروم من مكتبه وعانقها قائلاً: «العفو يا جميلتي» وأدخل يده في جيبه وقال:

– هذه ورقة خمسين فرنك إضافية خذيها كاحتياط لشراء الأكل في الطريق، هذا إذا كان الرجال سيتركونك تدفعين أجرة الأكل، ولا أظنهم سيفعلون!

في بداية العصر صعدت الكابينة وجلست بين السائق سمير وشخص آخر لا تعرفه يبدو من هيئته أنه محترم ووقور، فقد كان يلبس درّاعة من قماش كومندان ديالو ويتدلى مصحف محفوظ بغلاف جلدي على صفحة صدره العاري وكانت فتحة الدراعه عنده كبيرة شيئاً ما وحسنة التطريز، وارتسمت على لحيته الكثة خيوط شيب باكر، وكانت عيناه جاحظتين قليلاً وجبهته مجعّدة وأنفه حادّاً ومتكبّراً، وفي عمامته روائح بخور حديث اختلطت برائحة نيلة القماش الفاحم المتربّع بجلال ومهابة فوق هامته كتاج ملكٍ عريق... فمجمل مظهره كان يبشّر بأنه أحد أثرياء الزوايا المحترمين، وقد طمأن ذلك كثيراً المسكينة منينة.

قام أحد المساعدين بتدوير ساعد المحرك يدوياً مرات ومرات، وفي كل مرة يتأوه المحرك بلوعةٍ وحرقة وينفث سحابة دخانٍ صغيرة من ماسورةٍ علوية، لكن ظلّ المساعد يدوّر في إصرار قضيب الفولاذ حتى زمجر المحرك بقوة وصهل بعنفوان كوحوش البراري.

تجمّع حول العربة كل أولاد القرية بمن فيهم سيدي شقيق منينة الذي أخذ يرفع يديه ويرسم في الهواء رسوماً بريئة يكتب فيها تعاويذ وينفث في الهواء الطلق أدعيةً لحفظ شقيقته المسافرة نحو المجهول الذي سبقها إليه الأب مختار الأعيور.

شيئاً فشيئاً ابتعدت سيارة سمير عن تامشكط وتوجّهت جنوباً نحو أحراش أفلة، وكان يقودها بمهارة وفنّ فكان يصرخ عند أول ربوة، ويغنّي عند كل نزول، وحين يصل مكاناً ذا تربةٍ لينة يزيد السرعة ويصيح بأعلى صوته مستغيثاً باسم العذراء وهو يقول «يا مريم!». وكانت منينة تستغرب استغاثته بأنثى؛ فكل أولياء تلك الربوع الذين سمعت بهم كانوا دوماً من جنس الذكور!

في كل مرة كان يكبح فيها العربة بغتةً لتخفيف السرعة كانت منينة تقترب من ملامسته حيناً، وحيناً كانت تلامس الرجل الوقور، حتى حلّ المساء، فتوقف سمير وترجّل الجميع بمن فيهم مجموعة المساعدين المساكين المتكومين في الخلف بين خنش البقول والدخن والصمغ وبراميل الوقود.

تيمّم الجميع وصلّوا على الصعيد الطاهر، وتشاغل سمير بمعاينة محرك سيارته الذي ظل يزمجر، وأمَّ الرجل الوقور الجمع وأمضى برهةً غير قصيرة وهو يتلو أدعية طويلة بصوتٍ غير مسموع، ثم قام من مصلاه وعاد كلّ واحد إلى مكانه وانطلقت العربة مجدداً.

وقد أظهر الرجل الوقور فور عودته انزعاجاً خفيفاً من سمير فقال له بين العتاب والمفاكهة:

– هل في علماء الشام من رخص لكم بعدم الصلاة وقت السفر؟

تغافل سمير عن سؤال الزبون الوقور وكأنه لم يسمعه، لكن الرجل أعاد سؤاله فقال له سمير:

– سيدي، أنا لم تصلني الرسالة المحمدية بعد! وضحك ثم قال مردفاً: أنا من أتباع سيدنا عيسى ولست من أتباع سيدنا محمد، أنا نصراني.

فاستغرب الشيخ الوقور كلام السائق كثيراً وقال إنه سمع أنّ الشوام مسلمون، بل قرأ في كتاب **الفتوح الشامية** كيف دخلوا الإسلام على أيام عمر الفاروق.

وراح سمير يشرح له أن الأمر ليس كذلك تماماً وأن فيهم نصارى وأنهم على كل حال عرب، ثم سأل محاوره هل سمع بجبلة بن الأيهم؟

فقال الشيخ الوقور: نعم، أعوذ بالله منه... فجبلة ملك غساني دخل الإسلام وارتدّ عنه.

ساعتها أطلق سمير ضحكةً مجلجلة وكأنها أتت من بعيد وقال مازحاً: هذا اسم جدي!

وتذكّر الشيخ أن لا فائدة ترجى من مماحكة نسل جبلة فقال لتخفيف التوتّر:

– هل جميع أبناء جبلة يتكلمون العربية بطلاقة مثلك؟ لقد قرأت أنهم عاشوا في بلاد الروم!

– نحن عرب يا سيدي ونكتب الشعر والنثر كالمسلمين، لا فرق بيننا سوى أنكم أتباع محمد ونحن أتباع يسوع.

فواصل البدوي القادر على إخفاء مشاعره كالجمل ملاطفة رفيق السفر وقال له:

– هل تستطيع أن تنشد شعراً يا فتى؟

أغلق سمير نافذة باب السيارة وأنشد أبياتاً من قصيدة المواكب لجبران خليل يقول فيها:

القوم لولا عقاب البعث ما عبدوا ربّاً، ولولا الثواب المرتجى كفروا

كأنما الدين ضربٌ من تجارتهم إن واظبوا ربحوا أو أهملوا خسروا!

طلب منه البدوي إعادة ترتيل الأبيات كمن أُعجب بها، فأعادها على مسامعه فأطربه ذلك كثيراً واستزاده من الشعر فأتحفه بمقطوعات جبرانية متعددة.

سأل عن القائل والمناسبة واستغرب أيضاً من نصرانية الشاعر، فأكّد له سمير معرفته به وجزم انه ابن ضيعته بشرّي في جبل لبنان، وقال إنه ارتحل بعيداً عن أهله وذويه بسبب الفقر ومات في بلاد العم سام. وبطبيعة الحال لم يكن محاوره يعرف أي شيء عن الشاعر الكبير لكنّ كلماته لامست وجدانه كثيراً وأكسبت منشدها شيئاً من المودّة لديه رغم كفرها والعياذ بالله!

في حدود التاسعة ليلاً توقّفت العربة في مضارب قبيلة بدو تُدعى آكواريم، وطلب الشيخ الوقور من رفيقه التوقف عندهم لتأدية صلاة العشاء.

أكرمتهم تلك القبيلة الفاضلة فباتوا ليلتهم عندهم بعد أن ارتجلوا لهم مائدةً عامرة بالمشاوي والتمور، وناموا ونامت منينة في مهجع بعيد بين نساء المخيم، وعرفت من مضيفاتها أن الشيخ الوقور شاعرٌ مشهور وأن الناس يتلقونه بحفاوةٍ كبيرة أينما حلّ استدراراً لمدحه وتجنّباً لهجائه.

وقد تحلّق عليه رجال المخيم وباتوا يلاطفونه برقيق التودّد، وفيهم من مدحه ومن استمدحه وأطرب ذلك سميراً كثيراً فلعب دور حاجب الشاعر بمهارة وتواضع عجيبين.

في الصباح أقسم فتية الحي أن الشاعر عبد الله ولد المختور لن يغادرهم قبل أن يمضي معهم ثلاثة أيام هي أيام الزيارة العادية في شرع الله! وقالوا ان الأمر غير قابل للنقاش. وقد أزعج ذلك سمير وراح يروم التملص منهم بحجة أنه تاجر وأن زبائن آخرين ينتظرونه، وقد استفزهم ذلك فقالوا له وفي أيديهم بنادق صيد: «إن تحرّكت سيارتك سنطلق عليك النار وستموت هنا قبل أن تتحرك، وإن قبلت سنعوضك خسائرك» ودخلوا معه في مفاوضات وعوّضوه مقابل صبره، وهكذا انطلقت في مضارب تلك القبيلة أعياد عجيبة خلال ذلك المقام القسري الغريب.

توافد الشباب زرافات وفرداناً، ذكوراً وإناثاً، لرؤية الشاعر ولد مختور ومحادثته، وكان سمير ينظّم لقاءاته ويدعوا زواره إلى عدم الإطالة في الحديث مع الشاعر الكبير، وأكسب لبس سمير وشكله الغريب الشاعرَ مهابةً إضافية وشيئاً من جلالة.

وفي اليوم الثاني، بعد أن فهم ولد مختور بفطنته أنه قد أنشد كل ما لديه من شعر، راح يدفع الناس نحو سمير ويقول لهم تباعاً:

– هو هذا سند لي وخليفتي؛ إنه تلميذي الأقرب، انتبهوا لشعره... انتبهوا لهذا النصراني، إنه تلميذي الأقرب، يا له من شاعر كبير!...

وغمزه بعينه وأمره أن ينشد لهم من الشعر الجميل الذي تنزّل عليه حين كان في أميركا، والتقط سمير الإشارة وراح بصوتٍ فخيم متهدّج يُسمع البدو المتحلقين حوله ما حفظ من مواكب جبران خليل جبران في تتابعٍ درامي نادر، واعتلت وجوه الجميع علامات الدهشة، فالتقطت منينة بدورها الإشارة وأطلقت زغرودتها الرائعة والحبيسة منذ زمنٍ طويل لترافق سمير كلما صمت وهو ينبش في حافظته الفقيرة، وقد نفدت جبرانياته بسرعة فطفق يراوح بين بدوي الجبل وأمير الشعراء أحمد شوقي، ودهش الناس من الوفد العجيب أيّما دهشة وزادت الحفاوة عن المعتاد حتى قال عميد الحي إنّ ولد مختور ونصرانيه وجاريته هم الدجّال بعينه!

وراء كل كثيب كان هناك أناسٌ ينتظرون ويهدّدون ببنادقهم ويتوعّدون من لا يريد النزول بين ظهرانيهم، وكلّهم كانوا يعرفون اسم سمير ومنينة رغم حداثة عهدهم بالتجوال خلافاً لولد مختور الذي سبقت شهرته الجميع. وقد أتعبهم الأمر رغم فوائده الجمّة؛ فقد تحوّلت عربتهم إلى مخزن نفائس وأصبح بمقدور منينة أن تفاخر بجواهر وأمتعة وملابس فاخرة، وتزاحمت رزم الأوراق النقدية في جيوب سمير ومنينة وبطبيعة الحال في جيب الشاعر الكبير ووجه الخير على الجميع.

استغرقت الرحلة التي كانت منينة تتصورها ساعات قليلة قرابة الأسبوعين، حيث تفرّعت منها رحلات لمسافات قصيرة شمالاً وجنوباً، شرقاً وغرباً. وحين وصلوا انيور كان سمير قد تحول إلى أعرابي فخور وشهم فأصرّ على ضيافتهم في داره الفسيحة التي تقبع خلف دكانه، وكم فوجئت منينة وكذا ولد

مختور بنظافتها وأناقة ديكوراتها، حيث أطلّت من الجدران رؤوس محنّطة لوحوش وغزلان اصطادها هذا الفتى في رحلاته الكثيرة في ربوع السودان.

استغرب أهل انيور ما حلّ بسمير من تغيرات مفاجئة وكيف صار يقبل بضيوفٍ من البدو في داره، وظنّ بعضهم أن منينة ابنة الشاعر، وقال آخرون إنها عقيلة سمير، وتواصل اللغط لمدة أسبوع كامل.

من التغييرات الجديدة في سمير أنه صار يسأل كل بدويٍّ زار دكانه عن قبيلته، وأخذ يفاضل بين القبائل ويقارن. وفي كل صباح كان ولد مختور يذهب لتمضية يومه عند معارفه الكثر في انيور ويغادر سمير إلى دكانه وتبقى منينة في البيت، وفي المساء يتعشون سوياً وتغني لهم منينة أشوار[6] بدوية ينسج عليها ولد مختور بعض القوافي الحسانية في انتظار وصول قطع الغيار من خاي البعيدة، وهي قطع لا بدّ منها لتحضير السيارة للسفر إلى هناك، وكانت الرفقة ممتعةً جداً للجميع ولم يكن هناك من يتعجّل الفراق.

في المساء الثالث قرر سمير أن يتعلم قرض الشعر الحساني وبدا الأمر مسلياً لأستاذه الجديد فعلّمه أوزان هذا النوع من الشعر وأنواعه وراح ينسج عليها في كلمات مضحكة وغريبة بعض القوافي غير المسبوقة تغنّيها منينة، ثم اكتشف أن هناك ترابطاً بين الغناء والوزن، وفي نهاية الأسبوع استقامت قوافيه وتحسّن معجمه الحساني كثيراً.

حاول سمير أن يستميل منينة إليه لكنها صدّته بأدبٍ جمّ، وكرّر ولد مختور كذلك نفس المسعى الخائب، ثم قررا التغزّل فيها في كل القوافي التي ينسجان سوياً، وأطربها ذلك كثيراً كثيراً، وكانت مماحكاتهما حولها بداية الأدب العظيم والمتداول الذي نُسج حولها وانتشر بقوة كما تنتشر الأساطير الإفريقية.

كان ولد مختور ظريفاً وشاعراً مطبوعاً، واكتشف سمير موهبته الأصيلة بفضل رفقته، لكنّ أفضاله لم تتوقف على ذلك، فقد أفاد أيضاً منينة وعلّمها كيف تكون شهرزاد بين الوحوش، وقال لها حين أحسّ بها متألمةً من نظرات العابرين في شوارع انيور:

– اسمعي يا بنية: كل الرجال وحوش، لكن كل الوحوش يمكن ترويضهم بالكياسة واستخدام التضمين. لا تصدّي أحداً بجلافة إذا كنت تريدين التربّع على عروش الرجال؛ فمثلك يتدلّل للجميع، ويستميل الجميع، ولا يعطي لأحد، وحين تعطين فالقريب أولى بالمعروف!...

وضحك عميقاً فضحكت معه.

وأردف:

---

[6] الاشوار مقطوعات غنائية و اهازيج حسانية

– كلما حافظت على رسن الرجل الذي يترصّدك ستبقين سليمة وبعافية، وحين تتركين نصيحتي ستندمين. ولا بأس إذا أكثرت من التلميح وتعابير الفجور؛ فكل سيدات الشعراء يحسبهنّ السامع زوانيَ وكلهنّ بتول.

أخيراً وصلت قطع الغيار وسرعان ما زمجر محرّك سيارة سمير متوجّها إلى خاي عبر مجاهل بلاد السودان، ولم يسألهم أحد المبيت عنده خلال ليلتين متتاليتين من السفر المضني، وحطّوا الرحال في حارة خويندي ونزلوا عند أحد معارف ولد مختور، فعادت الأفراح. وبعد يوم وليلة حانت ساعة الفراق فكتب ولد مختور على ورقة بيضاء انتزعها من دفتر في دكان يواجه محطة القطارات بخاي أبياتاً من الشعر غزلاً بمنينة يقول فيها:

جمالك قد سما وعلا الجمالا فرائم نعته رام المحالا
فتيهي كيف شئت على البرايا غرورا أو عنادا أو دلالا
فإن بخسوا جمالك واجتووه ففظ القلب من بخس الجمالا
وإن عبدوه وافتتنوا فماذا على من ضل في سُكر ضلالا
فيا منينه إنك لحت سعداً تلألأ أفقنا لما تلالا
توقدّ في النفوس هوىً وشعراً يزيد الدهر جذوته اشتعالا

رافقها سمير وولد مختور حتى أجلساها في كرسي من الدرجة الأولى بين الروم والأثرياء ووقفا على الرصيف ينتظران مغادرة القطار، وكان منظر الشيخ الوقور وهو يودعها متوكِّئاً على منكب مريده سمير منظراً أبوياً حزيناً، وكان وجه سمير يفيض بالحب والشعر وقد اغرورقت عيونهما بدمع الفراق، لكنّ دموع الشعراء لمن خبرها سهلة الانهمار وصادقة وقصيرة المدة وسريعة الذوبان.

عادا إلى همومهما وانطلقت منينة وقد تغلبت عليها مشاعر سعيدة جعلتها ترفل في عزّ الاكتشاف العظيم... اكتشاف الوجه الآخر من الإنسان: وجه السماحة والرقة الذي ضنّت به الحياة كثيراً عليها، وقرّرت أن تتمسّك بلوعة الشعراء التي بهرتها خلال سفرها الغريب.

قررت أن تعيش على إيقاع الشعر ما تبقّى لها من عمر!

بعد قرابة يومين متواصلين من الصداع والقلق توقف القطار في بلدة تييس ونزلت منه وقيل لها إن قطار سان لويس سيغادر في قرابة الساعة، وتمكّنت من الجلوس في مقعدها في الوقت المناسب، ووصلت سان لويس في وقتٍ متأخر من نفس المساء.

ساعة الوصول وجدت نفسها وحيدةً في مدينةٍ ضخمة وباهرة ومضيئة، وسرت رعشة خوفٍ أزرق في كل جسدها وكبّلتها فتشمّعت على رصيف القطار. وبعد لحظات من التردد والحيرة وقفت ومشت خطوات قليلة ثم انفجرت في نوبة بكاءٍ مجلجل وتحلّق حولها رجالٌ ونساء وقد استوقفهم بكاء هذه الأعرابية كثيراً، فنادوا على تاجر موريتاني في دكان غير بعيد فجاء وراح يهدّئ من روعها وقال لها أنْ لا داعي للخوف، وسار بها إلى بيتٍ وسخ في حي صور، وباتت ليلتها بين البعوض ونساء البدو وقد تكوّمن في غرفةٍ رطبة كما تتكوّم الجرذان.

لم ترحّب بها مضيفاتها تلك الليلة، وفي الصباح ذهبن معها في تململ واضح إلى موقف العربات في حي قت اندر وتسنّى لها المشي فوق جسر اميسى ول فدرو ودخلت معهن الجزيرة وعبرن إلى قتاندر... ولم يتبادلن معها الحديث، فقد كانت وجوههن تحمل كل تعابير النفور والسخط حتى ركبت في مقدمة شاحنة لاكومب المتوجهة للشمال، فعدن عنها وقد تجلت أمارات الخلاص والسعادة على وجوههن.

أزعجها كل ذلك، فقد تعودت خلال السالف من رحلتها على التدلل والإكرام لكن ليست كل العربات لسمير وليس كل المسافرين ولد مختور!

أدركت في جفاء مضيفاتها البخيلات أن حظوظها من صحبة النساء قليلة وتذكرت أمها زينب التي لم تكن تحبها مثل ما كان يحبها والدها مختار، وتذكرت جيروم وكيف كان ودياً معها خلافاً لنساء تامشكط القليلات.

توكلت على الله... وانطلقت نحو المجهول!

أطل عليّ في الغرفة الدكتور برنارد وتبينت ملامحه بصعوبة وحاولت مصافحته لكنني لم أستطع فقد كنت لاإرادياً كمن يفضل البقاء في تلك الحالة الفريدة من الكمون، وهي حالة تجعل المرء غير متحكم في جوارحه حتى ولو كانت مداركه يقظة ومتحمسة.

كان برنارد يلبس سترة الطبيب ويضع نظارتيه، فتفرست في عينيه بوقاحة باحثاً عن أمر ما ووجدتهما قد أضحتا عسليتين. عادت عيناه فجأةً إلى لونهما المعهود، وتذكرت عدساته الزرقاء الزائفة في المرة الماضية فألهمني ذلك قليلاً من توتر وشيئاً من تعجب.

رشّ وجهي بماءٍ بارد ثم أرسل يده إلى تحت عنقي كمن يجسّ حرارتي وأحسست بيده لزجة وباردة ومزعجة شيئاً ما... لقد كان ملمس كفه يشبه ملمس بطن الضفدع الذي كثيراً ما أخافني به أصدقاء الطفولة في أزقة لكصر المتربة، فتململت وتحركت في مهجعي، وفي لحظة ما أشرت له بالتوقف.

لقد كان منظره عصبياً، وربما قلقاً، على غير عادته. ضغط زراً على حافة سريري ورفع به مقدمة السرير كهربائياً فجعلني ذلك في وضعية تشبه وضعية الجلوس، ثم فتح فمي بقوة ورمى حبة صفراء بداخله وقال بلهجة آمرة «دعها تذوب» وهو يطبق على فمي بيده اللزجة والباردة والمزعجة.

في لحظات قليلة تمكنت من العودة إلى وعي المكان وطلبت ماءً. ابتسم الدكتور برنارد وناولني كأس ماء وأخذت منها بمساعدته جرعة واحدة ثم انتزع الكأس بلطف وقال: تكفي جرعة واحدة فمنذ يومين تقريباً وأنت نائم تماماً!

فبادرته بالسؤال:

– كم لي هنا في هذه العيادة؟

– لك هنا ستة أيام لكنك تبالغ كثيراً ولا تتقيد بالتعليمات. الصوم لا يعني الانتحار، عليك أن تشرب الماء تدريجياً وبكميات معتبرة وأن تستعمل الألبان والفواكه السائلة؛ المهم تجنّب الأكل... بهذه الطريقة ستلزمنا على وضع حد للتجربة.

– لا، لقد نمت قليلاً... ومنذ زمان لم أنم!

خرج برنارد من الغرفة وعاد في برهة وجاءت معه فتاة تلبس نفس الأثواب البيضاء المحايدة والرديئة، لكن وجهها كان يشع بإشراق نادر يشبه تساقط خيوط شمس الضحى على كثباننا البعيدة، وقد

انهمر على كتفيها شلال من الشعر الأشقر البهيج، وكان منظر صدرها النافر والصائل آيةً في الحسن، وأفرحني كثيراً وجودها قرب هذا العجوز الإنجليزي الكتوم.

أرسلت يدها لتحت العنق كما فعل الدكتور قبلها ثم تلمست جبهتي وابتسمت وقالت:

– حرارته عادية، كان نائماً فقط كما يقول!

أجابها برنارد:

– خمسون ساعة نوم، هذا كثير جداً!

لقد كان ملمس كفها لطيفاً خلافاً لحضرته، ولعله فطن للفرق في الإثارة وجمال الحضور فأمرها بوضع مرهم عجيب على كامل جسدي، فقامت بطواعية مفرطة ترتجل فتح أزرار قميصي ثم سحبت السروال بقوة وسقط في يديها بيسر وراحت تمسح كل جلدي بذلك المرهم الغريب، وخلال ذلك قال لها الدكتور: «حاولي تغذيته قليلاً وسنواصل مراقبته. سأعاينه في المساء» وخرج دون أن يودّعني.

بعد جلسة تمرير المرهم تمكنت من الوقوف والذهاب إلى الحمام وفتحت النافذة بمساعدتها فجاءني هواء خارجي أنعشني كثيراً، وبسبب لطفها شربت كأس حليب وأكملت على نصف قنينة من الزبادي، وقد ذعرت قليلاً حيث لاحظت أن البيجاما التي كنت ألبس صارت تكبرني بكثير.

ثم خرجت للحظة تتبعها نظراتي العطشى، ووضعت قرصاً في الجهاز البعيد ثم عادت إلى محادثتي وهي تقول:

– هل تعرف هذه القطعة؟

– لا.

– هذه هي الفصول الأربعة لفيفالدي.

– ومن هو فيفالدي؟

– موسيقار مشهور.

وراحت تتحدث عن نسب وحسب فيفالدي، ولاحظت أنها مفلجة الأسنان فتركتها تتكلم لأنني أحب مشاهدة مفلجات الأسنان يتحدثن، خصوصاً إذا كانت الفوارق بين أسنانهن غير شاسعة، وقد كانت كذلك.

ثم توقفت عن الحديث وراحت تغيّر الحقنة الكبيرة التي تطلّ عليّ من فوق، وهي حقنة من الغلوكوز يبدو أنها نُصبت لإسعافي خلال الساعات الأخيرة من غيبوبتي.

لاحظت أنها تنقل بالإبرة بعض السوائل من علب صغيرة وتحقن بها كيس الغلوكوز المعلّق فوقي، فتبادر لي أن اسأل عن الأمر فقالت إنها مجرد مواد تقوية وتنشيط لا ضرر فيها.

حاولت دفعها للحديث بهدف التمتع بمشاهدة حديثها المفلج، لكنها في كل مرة كانت تعود إلى لغة الإشارة!

فقلت لها:

– أريد أن أعرف لماذا تغيرت عيون الدكتور برنارد، لقد كانت زرقاء والآن صارت عسلية؟ هل هذه حقيقة أم مجرد هلوسات بصرية؟

– لا ليست هلوسات. إنه يضع أحياناً عدسات زرقاء وأحياناً ينزعها!

ابتسمت واقتربت كثيراً مني وشرعت في تثبيت حقنة التغذية في وريدي. لحظتها لفحتني رائحة عطرها القوي والأخاذ، وخلال انحنائها على ساعدي تمكنت من ملامسة صليب أصفر كان يرقص على نهدها وتذكرت أنهم لم يصلبوه ولم يقتلوه وإنما شُبِّه لهم!

أشارت بيدها مودعةً وقالت: «أنا في الغرفة المجاورة» وخرجت، وسرعان ما سمعت صرير بابها وقد أغلق.

حيّرني أمر الدكتور برنارد كثيراً وحيّرتني مساعدته الجميلة، وقلت لنفسي إنه تقصّد استخدام هذه الحسناء لإيقاظي الكامل من هذا السبات العجيب، وسرعان ما استرجعت تفاصيل كل ما رأيت وكنت أضحك وحدي كالمجنون لساعات طويلة.

نعم، لقد تمكنت من رؤية أمي في تامشكط، ومن رؤيتها خلال السفر والتعرف على أصدقائها الشعراء، وأحسست بنوع من الطرب الهادر العجيب، فلم يسبق أن علمت بوجود سمير ولا حتى بوجود الشاعر ولد مختور!!

لقد تراءت لي أمي وهي بعد في ميعة الصبا وأصبح بمقدوري الجزم بصدق نظريات الدكتور برنارد.

آه... كم كانت جميلة... وذكية... ورائعة!

وأحسست بها بقوة معي في نفس الغرفة، ثم رحت ألومها: لماذا صدّت سمير وقد تمكنت من رؤيته هو الآخر؟ ورأيت بعيني كيف كانت تصدّه رغم وسامته. كنت حتما سأفخر به لو قبلته ساعتها وصار والدي، وشرعت أقارن بين هندامه وهندام يوسف ولد خيبوزي الذي عرفت، وبين شاعريته ورقته وجلافة وقسوة والدي. وتساءلت في حيرة وأسف عمَّ كنت سأكون لو أنني قبست من سمير شيئاً؟

أمضيت وقتاً طويلاً وأنا أصارع الذكريات وأجردها وأروم ترتيبها وتصفيفها ووضعها في تسلسل زمني، وبدا لي أن الحياة برمتها مجرد لعبة مسلية مع الزمن، وتذكرت جدتي العرجاء التي كانت تسبّ كل الناس وتسبّ معهم الدهر الذي جعلهم شيئاً، وكيف كانوا من قبل لا مكانة لهم في مواجهة أجدادها المغاوير الشجعان الذين انقلب عليهم الدهر الملعون والظالم!

خفق قلبي فجأةً، فقد تذكرت إمام المسجد وهو يقول لها وقد رفعت عقيرتها بالشتائم إن الدهر هو الله وإنه حرام أن يسبّه أحد.

وتذكرت كيف تطاولت عليه وقالت له: وكيف لا أسبّ الدهر الذي جعلك إماماً محترماً وأنا أعرف والدك الأخرق الذي كان يرضع الماعز في الخلوات ويحجب للنصارى؟ هل نسيت يا «مرابط» أنني أعرفه؟

استخلصت لنفسي أن الدهر هو أعتى تجليات الرّب؛ فلو مُنحنا الخلود هل سيكون للحياة من معنى؟

حين أتصور أن جدتي كانت ستبقى معنا إلى الأبد أثمّن بعرفان قوة الدهر الذي ذهب بها. ثم هل كان بمقدورها أن تتعايش بدورها مع أجدادها الفرسان الذين صكّت أسماعنا بهم؟ وكيف سنتجاور نحن وهم في حارة كل سكانها من الأجداد وأجداد الأجداد؟

لكنهم ذهبوا ولم يذهبوا في الوقت نفسه، كما يقول الدكتور برنارد!

لا مجال لرؤيتهم إلا بالتوق والشوق والصيام، وتعجبت من الصيام الموجود في كل الديانات وفي كل الحضارات، وكيف، وهو في الأساس تحرر بديهي من كثافات المادة واستدعاء عفوي لألطاف الروح، آل لموسم للنهم المنعتق من كل عقال وتحول إلى مهرجان عبثي ومناسبة احتفالية سوقية وأفرغ من معناه الدهري منذ زمن طويل.

إنه عندنا شهر من كل سنة، بل يوم من كل أسبوع، ويحتل عند العلماء والعارفين مساحة زمنية كبيرة تصل لربع زمنهم الدنيوي. وقلت لنفسي: لا بد أنهم رأوا شيئاً مما رأيت وإلا لما واصلوا هذه المعاناة كل هذا الوقت.

تذكرت في ذلك المساء بشدة أغنية صوفية لا أعرف من كتب كلماتها، لكنني سبق وسمعتها كثيراً عند أهل الميداح وكانوا يرتلونها كثيراً في المناسبات على إيقاع عجيب هو تكرار اسم الله.

كلمات الأغنية ارتسمت أمامي مقروءةً على جدران غرفة الصيام، ثم غمرتني أصواتهم المسموعة والجلية منطلقةً من جهاز التسجيل الداخلي لذاكرتي الهائمة في غرفة الصوم البلجيكي فسمعتهم يصدحون قائلين:

الله الله الله

في قلبي سر الكون والأمر مختفٍ

وأمري أمر الله مذ كان أمريا

ونومي خوض الغيب إن كنت نائما

وجل جلال الغيب عن حال نوميا

الله الله الله

لا أعرف لماذا عادت إليّ كلمات تلك الأنشودة بوضوح وليس لي في التصوف شأن ولا طريق، لكن علّها فكرة خوض الغيب التي شغلتني طويلاً قد استدعتها بغتةً من اللاشعور، وكيف لا تأتي من هناك وقد تمكنت من خوض المغيبات الماضية وما زلت أظن أنْ ليس بمقدور المرء معرفة القادم بوضوح لأنه تفاعل ونتيجة ما نقوم به الآن، ثم في نهاية المطاف أليس أنّ في نومة صاحب الأبيات شيء من نومتي؟

وطفقت أقارن بيني وبينه حتى أحسست بمثانتي تتلوى ألماً فذهبت إلى الحمام متوكئاً على العمود المعدني الذي ثبتت عليه الحقنة الكبيرة وحاولت إفراغها، وبصعوبة تقاطرت كمية ضئيلة من البول الأصفر الفاقع فعدت أدراجي إلى سريري في هدوء. وقد لاحظت في ذهابي وفي عودتي من الحمام تسرّب النور من تحت باب غرفة الطبيبة الجميلة، وكيف لا يتسرّب النور من بابها الموصد وهي بكل هذا الجمال المشرق الخلاب؟

حمدت الله كثيراً على نعمائه ومجاورتها، وشرعت أسبّح باسم الله الواحد ما كُتب لي أن أسبّح.

في حدود العاشرة مساء عاد برنارد وجاءت مساعدته الجميلة وجددت تدليكي بالمرهم العجيب وحقنني برنارد بمادة أخرى أدّت إلى ارتخاء عضلاتي بسرعة وخرج بخطوات واثقة.

بعد لحظات قليلة أحسست بالمساعدة الجميلة قربي تكلمني وكنت أتحدث معها وأنا مغمض العينين. وبعد برهة أخذ صوتها يتغير ويقترب من صوت أمي كثيراً، ففتحت عينيَ مرات ومرات، وفي كل مرة كنت أجد المساعدة أمامي باسمة، لكنّ صوتها ظلّ هو نفس صوت أمي، فهمست لها بما أعانيه من خلط بين الصوتين ولم أسمع جواباً منها بعد همسي، حاولت أن أرفع صوتي فلم أتمكن من تحريك لساني!

اقتربت كثيراً مني وراحت تناغيني كطفلٍ رضيع، ويا للهول!... راحت تقبّلني، ولامس صليبها وجنتي وأنفي، وقلت لنفسي إنها تستغل ضعفي وخدري وتتلذذ بي وتعبث بجسمي، واعتزمت أن أشكوها لبرنارد، ثم تذكرت أنني كنت أتمنى أن تفعل بي ما تفعله الآن حين كنت صاحياً وكامل الإرادة!

فتحت عيني اليمنى فرأيت المساعدة الشقراء تجلس على ركن السرير وهي تقول: نم يا جميل... نم يا أميري الصغير.

وأحسست أنني أنزلق، ثم أحسست أنني أمشي على صفحة من زجاج، ثم عدت إلى الغرفة لكن ليس إلى السرير بل إلى أعلى نقطة في ركن الغرفة، وتمكنت من مشاهدة المساعدة الجميلة وهي تقبّل النائم المحتَجز الذي يغطّ في سباتٍ عميق!

وقد أرسلت يدها بداخل قميص البيجاما، ثم اقتربت منه وراحت تطلق زفرات حرّى حول عنقه بشهوةٍ جامحة. وتعجّبتُ من أمرها، فقد كانت تظهر التكبّر وتوصد بابها بقوة وهي تشتهيني بهذه الدرجة!

انسكبت إلى تحت ورفرفت قربها، لكنها وقفت فجأةً بعصبية، فعدت أدراجي إلى أعلى الركن كي لا تنتبه لوجودي وتفطن لمراقبتي لها.

تحرّكت في دلال وأنوثة عجيبة وفتحت الباب، فتبعتها إلى الردهة، ثم فتحت الثلاجة وأخذت تفاحة من داخل الثلاجة الصغيرة وقنينة مياه معدنية.

كان بداخل الثلاجة برتقال وعنب وتفاحة واحدة فقط وثلاث قطع من الجبنة.

التفتت خلفها في وجل أو ربما في خوفٍ عابر، فابتعدتُ قليلاً حيث قرأتُ على وجهها مشاعر طافحة وغامضة.

تقدمت بخطوات نحو غرفتها وفتحت الباب، فانزلقت من أعلى ولامست شعرها بكياسة وترفق، وصعدت قليلاً ثم قبعت في الركن الأيمن العلوي للجدار الذي توجد فيه النافذة.

دخلت بعدي وهي تحرك بيديها شعرها بعنف وشراهة، ثم أمسكت مشط التثبيت ونزعته بعصبية ورمته فوق الطاولة وأخذت تقضم من التفاحة، وفي نفس الوقت كانت يدها الأخرى تحاول بعبث فك أزرار بلوزتها البيضاء.

رمت البلوزة على الطاولة وأتبعتها القميص والبنطال الأزرق وتبدت في شورت، ورفعت ثدييها ثم حررت نهديها، وظلّ الصليب يراقصهما أمامي لبرهة، ووقفت أمام مرآة الخزانة وأمعنت النظر في قوامها الجميل، ويبدو أنها كانت تعرف كم جميلٌ هو قوامها حيث راحت تقبّل شبحها في المرآة المثبتة على باب الخزانة، وكانت قبلاتها عطشى لشيءٍ ما!

لم تطفئ النور بل تمددت على سريرها وراحت تقرأ من رواية لمارسيل بروست لم أتمكن من معرفة عنوانها بسبب غلافها الأحمر القاني، وبدا لي أن الوقت قد حان لأمازحها فاقتربت من زر النور وضغطت قليلاً عليه فحل الظلام بالغرفة وعدت أدراجي إلى أعلى أي إلى نفس الركن القصي الذي كنت أتكوم فيه، وخلتها تقف في الظلام بل أحسست بها مذعورةً جداً، وبسرعة ضغطت زر النور فرأيت معالم الخوف الأزرق على وجهها العذب المتبتل. أطرقت لبرهة وهزت رأسها في حيرة، وتقدمت بخطوات متوترة نحو النافذة وفتحت الستائر بعنف فجاء ضوءٌ باهت من أعمدة الشارع الحزين، ثم فتحت النافذة فدخل هواءٌ منعش الغرفة، وعادت إلى سريرها وإلى مارسيل بروست.

تنازعتني رغبتان متناقضتان بين مواصلة اللعب معها، وكيف لا وهي صاحبة كل هذا الجمال الذي يخرج في عذوبته من لوحات المدرسة الفلمنكية العريقة: مدرسة عذارى النصارى المعلقات على جدران كنائسهم الرائعة، وبين الخروج الكامل من البناء المملّ والتجول في هذه المدينة النائمة، ولم يسبق لي خلال محاولاتي العديدة للخروج من الجسد أن تمكنت من ذلك قط بهذا اليسر الذي أتحرك به الآن!

لقد كانت هذه الجميلة منذ لحظات قليلة تستغل نومي وتستبدّ بي تقبيلاً وتلمّساً بشكلٍ كشف لي أنها تشتهيني بقوة وهي من تمتنع عن مخاطبتي حين أكون كامل الإرادة والإفاقة. ثم لا أدري لأي سبب ولا كيف انسبتُ مع النافذة وشرعت أحلّق وحيداً فوق تلك المدينة الكبيرة النائمة.

نظرت تحتي في إحدى المرات فلمحت قباب القصر الملكي، فاقتربت منه ودخلت من إحدى النوافذ وجلت في قاعة العرش الكبيرة: قاعة البساط الأحمر المهول والكرسي المرصَّع بالجواهر. ثم خرجت بسرعة من القاعة حيث لم يكن هناك أي شيء مثير للاهتمام بالنسبة إلي، ورحت ابتعد.

ورأيت أعجوبة الاتوميوم فملت إليها وقفزت إلى كريات الصلب التي تشكلها. قفزت كما يقفز رواد الفضاء على سطح القمر، فكنت أضع خطوةً تلو الأخرى. وفي قمة البرج ألقيت نظرةً عجلى على جسدي فاكتشفت أنني في تمام العري واكتشفت حبلاً فضياً يخرج من بطني من السرّة وأنه يرافقني أينما ذهبت، فأزعجني ذلك بل قل أخافني، فعدت أدراجي.

أحسست برغبةٍ عارمة في فرك عيني اليسرى ففعلت، ثم فتحت عيناي فوجدت نفسي على السرير وأدركت أنني ربما كنت نائماً فاستعذت من الشيطان الرجيم وتلمّست مسبحتي، وبعد برهة قررت الوقوف والمشي نحو الثلاجة، وحين فتحتها كدت أسقط من الدهشة حيث رأيت نفس العنب والبرتقال والجبنة والمياه المعدنية، وتذكرت التفاحة التي أخذتها المساعدة الجميلة، وكان النور لا يزال يخرج من تحت بابها، فتقدمت نحو الباب وأنا أجرجر معي عمود حقنة الغلوكوز المتحرك، وطرقت الباب ثلاث طرقات خفيفة، وجاء صوتها الحلو يفتعل النعاس الزائف ويسأل: ما الخطب؟

– رأيت النور وخمنت أنك مستيقظة فقلت لنفسي هل من الممكن أن أسألك سؤالاً بسيطاً؟

– لا، الحديث ممنوع. إذا لم تكن هناك حاجة طبية فلا داعي للحديث. أنا في السرير وأريد أن أنام لو سمحت.

– تريدين أن تنامي؟ أنت تريدين أن تنامي وقد أخذت التفاحة الوحيدة الموجودة في الثلاجة وهي لي؟

– هناك عنب وجبن. لا ضير لو أخذت التفاحة بعد كل هذا العناء!

– أنا أعرف أنك تقرأين مارسيل بروست!

– ماذا؟

– أعرف أيضاً أنك تنامين عارية إلا من شورت أسود صغير، وأعرف أنك غيرت جواربك بأخرى بيضاء. على فكرة، أنت جميلة جداً. لقد رأيتك تقبّلين نفسك في المرآة، وقد أطفأت عنك النور.

خرجت شبه عارية ومذعورة، ثم في لحظة رجعت إلى الغرفة وأغلقت الباب، وسمعتها تصطدم بشيء ما لعله حافة السرير. وعادت للمرة الثانية وعليها جلباب الطبيب الأبيض وقد ظهرت منه كل محاسنها الرائعة، وأخذت بيدي وقادتني إلى سريري الطبي وأجلستني عليه وشرعت تقول:

– هذا أمر لا يصدق... لا يصدق! لقد سمعت بهذا، بل قرأته في كتابات الدكتور برنارد. يا إلهي... هذا لا يصدق!

لم أقل لها إنني اكتشفتها تقبّلني مخافة الحرج، لكنها راحت تقبّلني وهي تدرك هذه المرة أنني في كامل يقظتي. جست نبضي فوجدته جيداً، فزادت الحقنة بمواد لا أعرف ما هي وراحت تدلّكني بمرهمها الجميل، وخلال التدليك طفقت أناملها ترسم على بدني خيوطاً عجيبة تنفخ فيها من لوعة أنّاتها ما رفعني لوهلة إلى الأعلى ثم سرعان ما كانت تعيدني للأسفل.

شيئاً فشيئاً رحت أنساب في الذكريات الحديثة ثم القديمة وراح صوتها يقترب من صوت أمي. وفي لحظةٍ ما فتحت عيناً، لا أعرف هل هي اليسرى أم اليمنى أم واحدة أخرى بينهما، وشاهدت أمي في الغرفة بجانبي وعليها بلوزة الطبيب؛ نعم نفس بلوزة الطبيب البيضاء المحايدة والرديئة التي ليست معك ولا عليك.

كان جو الغرفة فضياً ولم تكن فيها تغييرات تذكر. ثم جاءت نفس البقعة البلورية وتوقفت فوق جبهة أمي، فقلت لها «أمي تقدمي» وأشرت إلى البقعة، فأومأت بالإيجاب وتمدّدت البقعة ودخلنا في عوالم الذكرى البعيدة... وكان يا ما كان!

توقفت شاحنة لاكومب في خلاء ما وأمر سائق الشاحنة منينة بحمل حقيبتها والنزول من سيارته! فاستغربت الأمر، لقد كان عربي القسمات لكنه بخيل ومقتر، وكان كتوماً خلال الرحلة وقاسياً، لكنها لم تتصوره أبداً بهذه الفظاظة.

قالت له :أنا دفعت الأجرة للوصول إلى نواكشوط.

فأجابها: أنت في نواكشوط!

فالتفتت ذات اليمين وذات الشمال ولم تلمح أي شيء، فقالت له: هذا خلاء!

فقال: نواكشوط وراء هذا الكثيب، وأنا قلت لك ونحن في سان لويس إنني متوجه إلى أطار وأنني سأوصلك إلى طريق نواكشوط. انزلي... هيا انزلي وسيري في هذا الاتجاه، ووراء ذلك الكثيب سترين نواكشوط. إنها قريبة، مجرد دقائق قليلة من المشي.

وشهد له بعض الركاب فتوكلت على الله ونزلت في مرج تغطيه نباتات عديدة لم يسبق أن شاهدت لها مثيلاً، وأحزنها فور ترجّلها من السيارة لون التربة الأبيض الكظيم.

مشت ومشت... وكانت ريح البحر تعبث بملحفتها كلما تقدمت. ريح البحر جعلتها تقشعر برداً وترتعد كلما سمعت من بعيد أصوات بنات آوى وهي تغني نشيدها الخالد على معزوفة الرياح البلهاء.

حين استوت واقفةً فوق الكثيب رأت في الأفق بنايةً كبيرة، ثم أدركت أنها بين خيامٍ وبيوتٍ صغيرة، فأسرعت الخطى نحوها مستبقةً شمس المغيب، ووصلت هناك سويعة الأصيل عطشى كظبي فرّ من فوهة صياد، فقد كانت منهكة وقلقة بل خائفة مما يخبّئ لها المجهول.

لم تكن نواكشوط ساعة وصولها شيئاً يذكر؛ فهي مجرد قلعة صغيرة وحقيرة من طينٍ مخلوطٍ بالمحار وبعض الخيام وغرف متناثرة.

سألت عن والدها ورفاقه خيمة البدو التي بلغتها ساعة الصلاة، فقالوا لها إنه لا يوجد سجن هنا ولا سجناء وإنهم لا لهم علم بالأمر، فأحزنها ذلك ثم راحت تبكي وتجهش بقوة أكثر من بكائها في محطة القطار. وهنا قال لها أحدهم إنّ هناك على بعد مسافة غير بعيدة قلعة أخرى تدعى «الجريدة» على شاطئ البحر ربما يكونون بها لأن فيها عسكراً وربما سجناً، ورام تهدئة روعها لكنها لم تتوقف عن البكاء، فقامت عجوز من البدو لمواساتها وأكدوا لها أنهم شاهدوا الطائرة تنزل هنا منذ قرابة شهر لكنهم لا يعرفون شيئاً عن أمرها ومن فيها، وأنها في الغد يمكنها الذهاب للحاكم في القلعة الطينية المحروسة أمامهم ومعرفة التفاصيل منه.

في الصباح توجّهت إلى القلعة وفي يدها خطاب التوصية الذي مدّها به الفاضل جيروم، لكنّ حارس القلعة أكّد لها أن الحاكم غائب في رحلة صيد وأن لا أحد يعرف كم ستستغرق.

اندهش البدو الذين استضافوها من كلامها بالفرنسية مع حارس القلعة وتبرّموا وتوجّسوا خيفةً منها، لكنهم ظلوا كراماً معها.

لقد كانت خيمتهم الواسعة تعيش فيها بنات مراهقات وأمهن ويرقد أمامها والدهم اللبق حارساً مقيماً، وكانت مجرد خيمة من حيٍّ بدوي يقترب من القلعة اليتيمة في هذه المنطقة شبه المهجورة خلال هذا الفصل من السنة، وجلّ من في الحي إناث ورجال مسنون لأن كل الشباب الذكور تفرقوا بين الصيد على الشواطئ ورعي الإبل في المراعي المتاخمة.

في أيام قليلة تعرفت على كل الحي وعلى كل حراس القلعة ومن فيها، وعرفت أن اسم الحاكم هو باتريك وأنه شاب وأنه يحب الصيد البحري وأنه يغيب طويلاً في زيارة القلاع والنقاط المختلفة التي تعود له صلاحية مراقبتها وإدارتها، وهي في مجموعها مملكة كبيرة وشاسعة ممتدة من الرأس الأبيض شمالاً وحتى مشارف سان لويس جنوباً.

تعجّبت من أن كل هذا الإقطاع يعود له رغم صغر مقره البئيس والحقير مقارنةً بقلاع تامشكط وانيور التي عرفتها عن قرب.

حاولت تعويض مضيفيها بما تبقّى لديها من مال، لكنهم رفضوا. حاولت التودد إليهم، لكنهم لم يصدّوا عنها ولم ينفتحوا عليها، واستغربت كثيراً هدوء الناس هنا وأدبهم المفرط وتخيلتهم بلداء ومملين واشتاقت إلى الأيام الخوالي في رفقة الشعراء والهائمين، لكن ليس باليد حيلة.

في كل عصر كانت تقف على الكثيب وحدها تترقب عودة باتريك قبيل الغروب؛ باتريك الذي يعرف وحده أين يوجد والدها الأسير. ومضى الوقت رتيباً حتى ملّت الوقوف على الكثيب وملّت رؤية البحر البعيد الذي تمكن رؤيته من نقطة واحدة في أعلى الكثيب.

صعقت من الماء المالح في مناهل نواكشوط وكيف يعتبره سكانها عذباً، وحين اكتشف الشيخ أحمد ولد الرحموني أنها عطشى وأنها لم تستسغ ذلك الماء ركب جمله وتوجه إلى علب اللفاع وأتاها بماءٍ أقل ملوحةً، وغمرها كرمه وجلده على ضيافتها بمشاعر ودية تجاهه وتجاه عائلته الكريمة.

في عصر اليوم السادس، وكانت على الكثيب كالعادة، لمحت عن بعد أشباح فرسان يقتربون من مجالها البصري وكأنهم يأتون من الأفق البعيد أو من اللامكان، فتسمّرت في مكانها حتى تبيّن لها من سحنة أحدهم أنه فرنسي يمتطي جواداً وتتبعه كوكبة من الكلاب وحراس مرافقون.

رفعت طرف ملحفتها تلوّح له من بعد، ثم رفعت عقيرتها تصيح باسمه فاندفع نحوها مستغرباً، وكان جري جواده سريعاً وكانت كلابه وخيول حراسه تسابق الجواد وتحفّه، ثم توقف أمامها تماماً.

لقد كان فرنسياً برّاقاً وشاباً مفتول العضلات، ويلبس حذاءً جلدياً يصل إلى الركبتين وبنطالاً كبنطال سمير وتثبته نفس الأحزمة الغريبة، لكن لون قميصه كان مختلفاً قليلاً وكانت على رأسه قبعة كبيرة يتدلى منها حزام جلدي نحيف يلفّ ذقنه الحليقة.

رفع قبعته بحركة مسرحية كتحية سلام وقال:

– هذا اسمو انا من قال لك اسمو انا؟

دهشت من عربيته شبه السلسة، لكنها كانت تعرف ما تريد فاختصرت المسافة والوقت وقالت له بفرنسية سليمة:

– سيدي، أنا عندي لك رسالة من جيروم حاكم تامشكط.

– من من؟ حاكم ماذا؟

– تامشكط، قلعة تامشكط.

– أين هذه القلعة؟ لا أعرفها ولا أعرف شخصاً بهذا الاسم!

– تامشكط التي جاءت منها الطائرة منذ شهر وهي تحمل السجناء.

– سمحاً، لم أكن أعرف من أين أتوا... ثم كمن تذكر شيئاً قال: تحملين رسالة من جيروم، ذلك المخنث... تذكرته!

– سيدي، ماذا تعني «المخنث»؟ (لم تكن تعرف معنى الكلمة).

– غير مهم. أين هي الرسالة؟

– عندي في المخيم.

– جميل! غداً صباحاً أعطيها لسكرتيري.

ثم هزّ رسن جواده الضخم فانطلق ببطء تتبعه كلابه ويلهث حراسه متقطعي الأنفاس من مرافقة هذا الجنّي الذي يعذبهم بمواكبته.

عادت منينة أدراجها وقد ازدادت حيرتها واشتد ذهولها من هذا الحاكم المتكبّر والحذر الذي لم يظهر أبسط اهتمام بلغتها الفرنسية التي أذهلت الجميع!

في الصباح كانت في مكتبه وتحدثت له عن مأساتها وكيف جاءت من بعيد تتعقب خطى والدها الأسير. ولم يقاطعها لكنه لم يظهر أي تشجيع أو أي اهتمام زائد، وحين انتهت قال:

– إنه في «الجريدة»، وهي قلعة عسكرية غير بعيد من هنا. سأسمح لك بزيارته، فالجو هنا لم يوافقه كثيراً، وقد طلبت نقله من هنا لتدهور صحته وما زلت أنتظر الجواب. – ثم أمر سكرتيره بمرافقتها حتى «الجريدة» وناوله أمراً مكتوباً إلى قائد الثكنة يسمح فيه الزيارة لصاحبة الخطاب، ثم أردف قائلاً : – لا مبيت في الثكنة. أنا لا أريد قصصاً في الثكنة!

في اليوم التالي، وبعد أن اطمأنّت قليلاً على حالة والدها الذي لم يكن يتشكى إلا من البرد والزكام، رجعت إلى حاكم نواكشوط وقالت له:

– سيدي، أريد البقاء هنا قرب والدي.

– من منعك من ذلك؟

– أريد أن أقوم بعمل وأن يكون لي راتب كما كان لي في تامشكط.

صرخ باتريك في وجهها ولعن المخنّث كثيراً ثم قال:

– جيروم صاحب تامشكط يستخدم النساء لأنه يتجنب الخلوة مع الرجال!

اذهبي لزيارة والدك، وحين تملّين التسكّع عند البدو عودي أدراجك إلى أهلك... هكذا أفضل.

تمالكت نفسها وكظمت نوبة بكاء عارمة توثبت مزنها في محجريها وانسحبت دون أن تنبس بكلمة، وأمضت بقية اليوم دون أن تتحرك من باطن الخيمة.

وفي الأيام التالية واصلت الذهاب إلى «الجريدة» والعودة منها، وكان يشغل ذهنها أنها لا تملك حتى ما يكفي للعودة إلى مضارب أهلها ولا حتى إلى أنيور حيث يوجد سمير.

أحسّت فاطمة، كبيرة بنات الشيخ الرحموني، بلوعتها وراحت تستفسر منها عن أسباب الحزن الكابي الذي تلبّستها أخيراً وانتهت بأن فاتحتها بكل محنة المناذير من أولها إلى آخرها. وكم كانت طيبة ورقيقة المشاعر وهي تصغي إلى بوح هذه الضيفة التي نزلت من السماء لتبدّد وحشتها ومللها.

حكت فاطمة الأمر برمته للأم خديجة، وزادته قليلاً، ثم روته الأم خديجة وأضافت عليه توابل مما لديها، وانتهت قصة البنت البارّة بأن أيقظت لواعج الشيخ الودود الجالس دوماً أمام الخيمة، فقام باستدعائها إلى حضرته وأدنى مجلسها إليه وقال:

– اسمعي مني، أنت هنا بين أهلك، وأنت محظوظة جداً جداً.

سكت لبرهة ثم حرّك مسبحته وقال:

– كوني على يقين من أن هذه الخيمة بمن فيها تحت أمرك، لا تتحرجي من شيء، تصرفي براحة بال، وأبشري وقرّي عيناً فقد منّ الله علينا بكثيرٍ من نعمه، وكلما زارنا أحد نجحت مهمته. لست الأولى ولن تكوني الأخيرة.

وأضاف بعد برهة:

– أنا أعجبت بك وبصلواتك وبتعلقك بوالدك، وسأعمل لك إن شاء الله، سأنقطع لك في خلوة أريد بها تيسير أمرك!

سألها الشيخ عن اسم الأم فقالت له إنها تدعى زينب، وتذكّرتها متعلقةً براحلة الأقرع اللئيم.

ثم اختفى العجوز السمح وانقطع في الأفق وقد احتمل على جمله مؤونة أيام رغم أن الحي الذي يزعم تقصّده في تمويه مكشوف لم يكن يبعد أكثر من كيلومترات قليلة.

وفور عودته بعد ثلاثة أيام متتالية في خلوة بعيدة على شاطئ البحر همس في أذنها بكلمات غير مفهومة وناولها شيئاً.

توكلت منينة على الله وهمّت بالعودة إلى القلعة مستعينةً بكتاب خطّه لها العجوز الودود خلال خلوته، لكنه أشار إليها أن تنتظر. وحين أخذت الشمس تسطع بقوة زوال اليوم التالي سمع الناس صوت طائرة تهمّ بالنزول غير بعيد عن المرج القريب من القلعة، فأشار إليها بالذهاب هناك، فتقدمت إلى المكان المغبرّ وهي تمشي بثقة وطمأنينة غير مسبوقة.

نزلت من الطائرة فتاتان في ريعان الشباب وثلاثة رجال مختلفي الأعمار، وكان في انتظارهم كل عساكر القلعة يحيطون بالحاكم باتريك ويبعدون الفضوليين من الأطفال المتجمهرين لرؤية المشهد.

دون سابق إنذار اقتربت منها إحدى الفتاتين ووقفت بقربها وقالت لأحد الرجال كلمات لم تسمعها، فرفع شيئاً في يده وانطلقت شرارة سريعة كوميض البرق من ذلك الشيء، ثم التفتت نفس الفتاة الباسمة نحو باتريك وقالت له: قل لها إنها جميلة!

فقال للفتاة: إنها فعلاً جميلة وقد سمعتك فهي تتحدث بلغتنا كما تتحدثين.

فدخلت في نقاش ودي مع الفتاة التي هبطت من السماء حتى وصل الجميع إلى بوابة القلعة، ودون استئذانٍ من أحد تشجّعت ودخلت معهم باطن القلعة الصغيرة.

الفتاة الباسمة والنشطة تدعى أوديت، وكانت ودية معها خلال العشاء، واكتشفت أن الأجهزة التي عندها أجهزة حديثة ترسم الإنسان. وأفهمتها أوديت خلال الحديث أن جيروم حاكم تامشكط صديقها أيضاً وانهم كانوا هناك في صباح نفس اليوم، وشرحت لها معنى كلمة «المخنث» بلغتهم ودلالاتها المختلفة، فاستغربت كيف يريد رجل طيب وقوي البنية مثل جيروم أن يكون أنثى!

كانت أمسية رائعة، وأروع ما فيها أن باتريك أصبح يعاملها برقة مدهشة. وحين حل وقت النوم، أي حين سمعت الآذان لصلاة العشاء، اعتذرت عن مواصلة السهر، فرافقها باتريك ليس إلى البوابة بل إلى مشارف حي البدو ورام ملامسة يدها، لكنها تمنّعت وتملّصت بقوة ثم تركته وأسرعت الخطى نحو الخيمة لتخبر فاطمة بما حصل لها من فتوحات ربانية.

في الصباح لم تستيقظ بسرعة وأحست بكسل غريب، وكان صوت المؤذن يتداخل مع برد الفجر وحمحمات الشيخ العارف وهو يتوثب للصلاة، وتناهى إليها صوت الأم خديجة يقول: اتركوا المسكينة، إنها محمومة.

ظلت مراوحةً بين النوم الوردي واليقظة الخفيفة في مهجعها حتى تسرّب إليها نور شمس الصباح الدافئ المتبتل، فقامت بأنوثة مكسال هيفاء إلى وسط الخيمة وتيمّمت وقضت صلاة الصبح متمارضةً ومرتبكة.

في ذلك الصباح الجميل كان الشيخ أحمد ولد الرحموني يجلس كعادته على بساط وثير من شعر الغنم في الهواء الطلق ويعدّ شايه بنفسه، فلمحها عن بعد تصلّي فأشار إليها بعصاه أن تقترب منه ففعلت وجلست عند كتفه بحياء وخفر، فقال لها:

– لا تذهبي بعد اليوم ولا تخرجي من هنا. من يريدك فليأتِ إلى هنا. نحن ننتظره، وسيعرف هذا اللقيط أن ليس له من الأمر شيء!

لم يكن الشيخ أحمد يحب الحاكم لأنه كافر وأعزب، وكان يخشى جموح شبابه وعساكره الكثر على بنات الحي، لذلك لم يقبل أن يبارح المكان إلا نادراً، وكان يراقبهن كلهن بقوة أسد غيور رغم سنه وضعفه وهدوئه الخارق للعادة.

امتثلت منينة لأمر الشيخ العارف وانقطعت حتى عن زيارة والدها الذي يصارع القدر في سجنه المضطرب والبعيد على مرمى حجر من بحر الظلمات.

مضى اليوم الأول ولم تلحظ أي شيء، ورأت الطائرة تحلق بعيداً فقالت لنفسها: «سيتحرك الكافر فور سفر ضيوفه» لكن لم يحدث شيء... ومضى اليوم الثاني ولم يطرأ أي جديد، وبدأ يساورها قلق خفيف. وفي اليوم الثالث مرّ الحاكم باتريك بقربهم فتصنّعت الهدوء ودخلت الخيمة، لكنه واصل المسير نحو الغرب، وحين وصل قمة الكثيب توقف والتفت إلى كل الجهات لبرهة قصيرة ثم اندفع جواده يركض نحو البحر.

قيل إنه عاد في المساء، واستغرب البعض سرعة عودته!

في الصباح جاء عسكري جلف يطلب محادثتها فقال له الشيخ إنها غير موجودة، وكانت جالسة بين بناته تشاهد وتسمع الحديث بين الشيخ والعسكري!

وخلال صلاة الظهر اقترب باتريك من الحي لكنه لسع جواده وعاد أدراجه، وفي كل مرة كان العجوز يتمتم بكلماته الخطيرة ويسرّع تدوير مسبحته ويبتسم.

بعد يومين جاء عسكري آخر وقال للشيخ إن الحاكم يعرض عليها وظيفة الخادمة التي سبق وتعلمتها في تامشكط، فقال له: هي ضيفتي ومثل بنتي ولا تحتاج شيئاً، قل له شكراً على كرمه.

تعب باتريك من مماحكات البدوي العتيد فأرسل إليه في اليوم التالي جنديين مدججين بالسلاح وصاحباه إلى داخل القلعة، وسرى في الحي شعورٌ مبهم بالخوف لكن سرعان ما خرج الجنديان وقاما

بتحضير جمل الشيخ المقيّد غير بعيد عن مضارب الحي ووضعا عليه «الراحلة» وبساط شعر الغنم الفاخر الذي يصلي عليه في أوقات التجلي.

ثم في لحظة فارقة شوهد الشيخ يتسنّم جمله الطويل وبجواره الحاكم وقد امتطى جواده ولا تتبعه كوكبة الكلاب ولا جوقة الحراس وراحا يسرعان العدو غرباً واختفيا في الأفق الرحيب.

عاد الشيخ في وقت متأخر ليلاً ولم يتحدث مع أحد وأمضى جل الليل وهو يصلي، وفي ضحى الغد الباكر تحلقت حوله كل سيدات الحي فقال لهن بصوتٍ رخيم ووديع:

– لقد أسلم الحاكم والحمد لله، والآن يمكنني القول إنه لا ذنب عليه... إنه كمن ولدته أمه للتو.

ثم رفع صوته عالياً كمن يريد أن يُسمع الأمر لمنينة التي كانت تتصنّع الحياء في جوف خيمته وأردف يقول:

– لقد زار معي المساجين وتباحث معهم، وقد وكلني مختار شيخ المناذير بالنظر في كفالة ابنته ورعايتها، وهي كما تعرفون ابنتي وأنا أشهد لها بالبرور، وأريدكن أن تقولوا لها إن الحاكم خطبها وأنني موافق وأتمنى عليها أن تمتثل لما سأفعل في أمر زواجها.

هكذا، في بداية الليل، تجمّع كل رجال الأحياء المجاورة وحضروا عقد قران منينة وباتريك بلانشيه. وفي اليوم التالي دخلت القلعة وقد اصطفّ الجنود لتأدية التحية العسكرية لها واستعرضتهم كملكة عارفة بالأمر... وأُغلقت بوابة القلعة.

رغم تحسّن ظروف السجناء وتحسّن نوعية غذائهم ووضعهم النفسي تبعاً لتلك المصاهرة، لم يستطع الأعيور الصمود طويلاً في مواجهة مناخ البحر، حيث كانت نوبات الربو لا تتركه إلا قليلاً، وكان الصداع المزمن يعكّر صفوه رغم جهود كريمته ومرافقتها له في جلّ أوقاته الصعبة، ورغم حنان صهره وسجّانه.

بأمرٍ من باتريك كان الممرض الوحيد يقوم بكلّ ما يمكن القيام به من إسعافات ويرابض عند قدمي مختار جلّ الوقت؛ فقد تعقّد وضعه الصحي بسرعةٍ عجيبة.

ثم سمح الحاكم بنقله إلى داخل القلعة لتجنيبه رطوبة البحر، لكن كل ذلك لم ينفعه، بل أدى نقله على الجمل كل تلك المسافة بتأزيم وضعيته التنفسية الصعبة، وسلّم الأمانة في يومه الرابع في القلعة ورأسه المشوه يتوسّد فخذ ابنته الوارفة عليه كشجرةٍ ظليلة.

ذعرت كثيراً، وبكت كثيراً، ورقّ لها زوجها باتريك كثيراً. وكان الشيخ ولد الرحموني يزورهم بين الفينة والأخرى ويلقّن شيخ المناذير أدعية الفرج وكلمات الرحيل الأخيرة.

في يوم وفاته بدا مشوشاً طول الوقت وغائباً، ثم عاد إليه لوهلة عابرة شيء من فكاهته الأصلية فقال لشيخه الروحي الجديد: هل أدعيتك ستنفعني؟ وأردف يقول: الله لا تخفى عليه خافية، حين كنت قوياً لم أصلِّ له والآن أنافقه!

ابتسم الشيخ أحمد ولد الرحموني وقال: يا شيخ مختار، لا تقنطوا من رحمة الله!

ثم عاد مختار إلى شبه غيبوبة، وفي لحظة ما أفاق فقال لمنينة الجالسة عند رأسه: حجّي إلى بيت الله وقولي للرسول إنني كنت أحبه ولم أسلب أبداً أموال أبنائه!

ابتسمت ووضعت رأسه على فخذها وبعد لحظات شهق وظل فاغر الفم بعد شهقته القوية ونزل رأسه عن فخذها وقد تدحرج كل النقاب عن وجهه المهشّم.

لم يكن باتريك يعرف ما حلّ به. لقد أحسّ فجأةً بشيء جذاب ومجنون يدفعه للبحث عن تلك الصبية البدوية التي وقفت على التلة تنتظره ذات مساء، وكان صوتها وهي تنادي باسمه يلاحقه كثيراً، لكنه كظم نفسه واعتبر أن تضييع الوقت مع هؤلاء الأجلاف كارثة وخطر كبيران وزلّة مهنية.

لقد عاش في حياته السابقة الكثير من الصدمات العاطفية ومن المشاكسة المستهترة والصاخبة، وكان دوماً فرحاً ومتبختراً وباحثاً عن السعادة والزهو، لكن استهتاره جعله يخسر كل شيء، فقد حلّت به لعنات رؤسائه وطُرد من سلاح الجو ونُقل بحجة عدم الانضباط المهني إلى سلك الاحتياط، ثم عوقب بنقله إلى جوف الصحراء قائداً لمنطقة معزولة ومنسية لا يربطه بها مهنياً سوى أن سلاح الجو ينوي بناء قاعدة جوية بسيطة قرب تلك القلعة التي عُيّن حاكماً عليها وما زال ينتظر مشروع المطار والقاعدة منذ سنوات عديدة.

رغم صعوبة المنفى وغربة الصحراء كان من حسن طالعه قرب مقر عمله من سانت لويس التي يذهب إليها كل شهرين. وفي انتظار ذلك، ولتبديد الغربة، اكتشف ركوب الخيل ورياضات الصيد البحري والبري وعدّ نجوم السماء ليلاً!

عموماً كان وضعه أقرب إلى التسليم بالقدر والخنوع له، لذلك عاش هنا كراهبٍ متنسّك يريد نسيان شيء ما، وهو شيء صعب ومؤرّق فكل الناس في فرنسا تعرف أنه ارتكب حماقات كثيرة ونجا منها بأعجوبة.

كانت سمعة والده الفقيد الجنرال بلانشيه هي كل ما يهمّه، وقد دنّس تلك السمعة الكبيرة التي بناها ذلك الرجل الكبير في الحرب الكبرى.

لقد كان والده قائد سرب الطائرات البدائية التي استُخدمت لأول مرة في التاريخ ضد الألمان في غابات الآردين، وكان عقيداً، وتلك رتبة عالية تكفل له البقاء على الأرض وإدارة العناصر التابعة له، لكنه

قرر القتال مع عناصره وسقطت طائرته فوق بلدة سينيه ببلجيكا وخرج شبه ميت من تلك الواقعة وبُترت أطرافه السفلية ورُفِّع إلى رتبة عقيد ماجور ثم صار جنرالاً!

عاد والده من الحرب جنرالاً بمرسوم استثنائي، لكنه عاد قطعةً من لحم تجلس على كرسيٍّ متحرّك، وقد تقبّل ما حلّ به بوطنية وتسليم بمحنته وحاول مواصلة العسكرية عبر ابنه الثاني باتريك.

لذلك يمكن القول إن باتريك ولد للطيران وقد درسه وتدرب عليه واعتبر من خيرة الطيارين في العالم، وكان خلال برهة من الزمن موضع التدليل والحنو من سلاح الجو بل ومن كل كبراء العسكرية الفرنسية في العالم.

وقد سمح لنفسه بالتمتع بتلك المشاعر الودية نحوه بل أفرط في ذلك حيث لم يكترث بالتعليمات ولم يبالٍ بقادته، ويتذكر جلهم بغضب وتعجّب ذلك المدلل الذي حلّق دون ترخيص بمقاتلة فرنسية مخيفة فوق وسط مدينة ليون وبثّ الذعر في سكانها، ولم يكن عنده من تبرير سوى أنه كان يريد أن يثبت للجميلات هناك مدى رجولته!

كما ضبطت عنده في مدينة تولوز قذائف كان ينوي تهريبها لبعض أصدقائه من طياري فرنسا المشاغبين الذين قرروا الانضمام إلى ألوية الحرية المناهضة لفرانكو في الحرب الأهلية الإسبانية، وغير ذلك من الحماقات التي جعلت المجلس العسكري يشطبه من لوائح الطيران العسكري والمدني سوياً، وأُرسل إلى للسجن حيث أمضى شهراً كاملاً. لكن الجيش لم يتركه وشأنه فأعيد إلى الخدمة الاحتياطية وكُلِّف بالعمل الإداري بالمستعمرات، وعُيِّن لاحقاً من قبل والي غرب إفريقيا الفرنسية حاكماً لهذه القلعة المنسية، وقد قبل ذلك بنصيحة من صديقه سانت إكزوبيري؛ شيخ المغامرين والحالمين!...

وقد تقبّل العقوبة بعد أن قيل له إن مطاراً سيُبنى هناك وأن شخصه تحت المراقبة وأنها فرصته للعودة للطيران، فقد وعده أصدقاء الجنرال الفقيد بالعودة إلى حبه السماوي ومهنته الأصلية إن ساعدهم بتقارير إيجابية عن رؤسائه الجدد.

بذل جهوداً كبيرة في ضبط نفسه والتكيّف مع منصبه العقابي حتى جاءت هذه البدوية الواثقة والغريبة لتشتت أفكاره وتحمله إلى مساحات الجنون التي ظن أنه نزح عنها منذ زمن بعيد.

لم يتردد في اعتناق الإسلام، فهو لا يجد مانعاً لذلك إذا كان اعتناق هذا الدين العجيب هو مجرد النطق بجملة واحدة وتهجئتها خلف رجل الدين الذي يمنعه برقّة وودّ من نيل حظ من متعة عند صاحبة الردفين المكتنزين.

في البداية استغرب باتريك وله الفنانة أوديت بهذه البنت التي كانت تريده منذ أيام أن يقبلها خادمةً حقيرة في بيته... لقد نبّهته إلى مكامن الرقة فيها ومواضع الجمال. فحين غادرتهم البدوية وعاد باتريك من

مرافقتها بسرعة تنفست ضيفته المدللة ملء رئتيها وزفرت في وجوه الجلساء وقالت له بالحرف في تعريض وسخرية وقحة:

– أنا لو كنت رجلا لما تركتها تمر بهذه السرعة وهكذا بسلام.

وراحت تصف وجنتيها وتتغزل بنظراتها البائسة وحركاتها الملكية، فقرعت الطاولة رفيقتها جاكلين لتنبهها إلى وجودها في غيرة نمرة مجروحة، لكنها واصلت صبابتها وقالت في بوح مكشوف:

– لقد اكتشفت جمالها الفطري يوم أمس في مرسم صديقتي جيروم، وجيروم مثلي متيمة بها، لكن جيروم مختلفة جداً!

وحدس باتريك أن أوديت ما جاءت هنا لزيارته إلا لرؤيتها فاستيقظت فيه غيرة نائمة وتملكية بعيدة وأخذ يستذكر جمالها مع المستذكرين والمستذكرات، وغمره إحساس بالتقصير وبالخجل من نفسه، وكيف لا وقد كان فظاً معها خلال الأيام الماضية!

اعتزم اكتتابها لديه والعبث بها كما نصحته أوديت، لكنها باغتته بهروبها منه وبالحارس الجديد الذي يقف أمام خيمته لحراستها وليس في يده من سلاح سوى مسبحة يحب تدويرها بصمت وسكينة... كل تلك الأحداث جعلته دون سابق تخطيط يذعن لسحرٍ ما.

ثم بعد وفاة مختار الأعيور تفاقمت مشاعر الودّ والتضامن مع البدوية الحسناء، فقد تذكر والده المهشم في حروب فرنسا، وراح يقترب من هؤلاء البدو بخطى حثيثة. ومع الوقت تحولت قلعة نواكشوط إلى مثال جيد للتفاهم الممكن بين السلطة الغريبة والأجنبية وأبناء المستعمرة.

ازداد مركز الشيخ أحمد ولد الرحموني قوةً وهرع الناس إليه من كل القبائل يتوددون إليه ويطلبون بركاته الباطنة والظاهرة. وقد اعتمد عليه باتريك كثيراً في إدارة تلك القبائل المختلفة والمتناقضة، ثم راح يتعلم منه مبادئ الدين الجديد وشوهد مرات عديدة يصلي خلفه.

في كل مساء كان باتريك يجلس في وسط القلعة على دكّة مكشوفة ويحمل إليه جنود الخدمة مذياعه الضخم ويستمع إلى أخبار العالم، وكانت منينة تستمع معه بيقظة ويترجم لها المفردات التي لا تفهمها ويتحدث لها عن حياته الماضية هناك وعن والده الجنرال الفقيد وعن أمه وإخوته.

لم تكن نشرات الأخبار دوماً مصدر راحة وهدوء، فقد كانت نيران النازية قد بدأت تخرج عن نطاقها المألوف، ففي كل نشرة أخبار هناك حديث عن تحضيرات الرايخ الألماني للحرب على فرنسا وبريطانيا.

أقنعته منينة أن يطلب العون الروحي من الشيخ، فتردد طويلاً ثم قال لها أن تحادثه نيابةً عنه، فتحدثت مع الشيخ وقالت له إنها تريد ان تتحسن أحواله النفسية وأن تتحسن علاقاته مع رؤسائه، فوعدها بالدعاء له.

ثم حصل ذات صباح أن توقفت سيارة عسكرية أمام القلعة، وفي نصف ساعة غادر باتريك على متنها وتوجه إلى سان لويس، وعاد بعد أيام فرحاً ومغتبطاً وأخبر زوجه وشيخها أن فرنسا قررت توسعة القلعة وتجهيزها.

أخذت الشاحنات تترى، وفي شهر ونيف شرع عمال مهرة بتشييد مقرات عديدة للبريد، والمستوصف الجديد، وسكن الحاكم ومكتبه، ثم جاء مهندسون وأخذوا في تسوية السهل الذي تهبط فيه الطائرات وحفروا دوائر غائرة ووضعوا فيها صهاريج الوقود، وفي مكان غير بعيد عن البئر شيدت ملاجئ إسمنتية تحت الأرض. وبعد ذلك جاءت فرقة عسكرية من مائة فرد ودخلت المهاجع، وأصبح باتريك فعلاً قائداً لنقطة مهمة ومحترمة في سلّم الإدارة والعسكرية.

شرعت الطائرات المسافرة على خط الشمال تتوقف هناك، وبدّد ذلك غربة المكان حيث تعرف آل بلانشيه إلى كل الشخصيات التي مرّت بمطارهم وأعجب جلّهم بسيدة المكان وبأدبها، بل تحدثت عنها الكثيرات كمثال لبنت الهمج الراقية والمندمجة في الحضارة. وقد تمكنت عبر المحاكاة الأنيقة من الوصول إلى مستوى مقبول من المجالسة الأليفة والودية مع كل ضيوف القلعة.

رغم كل تلك النعم ظل باتريك حزيناً وضجراً في كثير من أوقاته!

سمعت ذلك الصوت يكرر هززز... هززز، فخلته جهاز التلفون أو جرس التنبيه، فالتمسته قرب المخدة لإسكاته ونقبت عنه بيدي وأنا ألعن الجرس المزعج ومخترعه لكنني لم أجده ولاحظت أن جهازاً ما يقترب من فمي فرمت إبعاده هو الآخر فإذا بوجوه لا أعرفها تقترب مني وتتحلق فوقي وسمعت لغطاً ما لم أتبينه، ثم بدأ الوعي يعود إلي شيئاً فشيئاً!

عرفت أنني تعرضت خلال نومي لشرود تعمّق بتسارع مقلق منذ ساعات، وأن برنارد نقلني إلى الطابق الرابع وكان يعتزم نقلي إلى العناية المركزة في مستشفي اديت – كافيل ببلدية ايكل، وهو المسشفى الذي يدير فيه جناحاً كاملاً، لكنه تريث قليلاً والحمد لله لتريثه ورزانته.

لقد كاد الجوع يقتلني تماماً خلال التجربة المريرة، ذلك ما قاله لي الدكتور برنارد فور إفاقتي، واستنتجت أنني ربما دخلت مرحلة خطرة جداً بحكم فيوض المودة والحنو التي قرأتها لأول مرة في حياتي على وجه الشيخ برنارد.

لقد صار يخاطبني دون ألقاب ويقول: يا صديقي، وحيناً: يا صغيري!

نعم، صار يخاطبني فجأةً بالمفرد بعد أن احتفظ بكل أنواع الكلفة والمسافة معي خلال أكثر من سنة متواصلة من التعارف والاجتماعات. لعله فعلاً أحسّ بالذنب تجاهي أو قلق كثيراً على أيامي، حيث قال لي بعد ان اكتملت إفاقتي:

– سنتحدث في جو آخر عن مرائيك. يبدو أنك يا عزيزي وُفِّقت في رؤية أشياء غير مسبوقة.

سألته عن مساعدته الجميلة قائلاً:

– هناك دكتورة كانت هنا معي حدثت لي معها أشياء غريبة!

– آه، الدكتورة آندريه، إنها يا صغيري مشدوهة بك كثيراً، لقد تحدثت إلي عن ذلك. سأهاتفها وأبشّرها بعودتك إلى كامل وعيك. لقد كانت هنا وخرجت منذ نصف ساعة. لا عليك، سأطلب منها العناية بك يا صديقي!

وأردف قائلاً:

– لا بدّ من إيقاف هذه التجربة كي لا ينقطع الحبل.

– أي حبل؟

– تلك أمور سنتحدث فيها لاحقاً.

ووقف وفتح جهاز التلفزيون ومرق بسرعة من الباب وأمضى دقائق في البهو، ثم عاد ومعه مرافقه الدكتور منصف، وهو تونسي أربعيني رقيق الشفاه ومجعد الشعر وفي عيونه زرقة أو خضرة تشي

بالروافد البيولوجية المختلفة للتوانسة، وهو من أصدقاء خليلتي السابقة سيلفي التي عرّفتني عليه منذ زمن طويل، ويعتبر من أقرب حواريي الدكتور برنارد بل يتصوره جل أعضاء حلقة البحوث الغريبة بمثابة خليفته وولي عهده.

قام برنارد بقياس حرارتي وطفق منصف يجدّد الحقنة فوقي ودحرج جهاز تقوية التنفس بعيداً، وكذلك فعل بجهاز مراقبة نبض القلب، وقال منصف:

– فور انتهاء الحقنة سوف نبدأ بالأشعة وبعض الفحوص. الآن يمكنك بل يجب عليك الشرب، وحتى الأكل، ولو لم تكن عندك شهية. لا بدّ من ذلك وبسرعة!

في منتصف الليل أُدخلت الطابق الثالث وتعرّضت لأشعة السكانر، وبعد ذلك دخلت الطابق الثاني وتعرضت لعملية رشّ شاملة بالماء البارد، وتمكنت من الوقوف رغم الدوار والخور وخطوت خطوات بسيطة نحو المرحاض واستطعت التبول بسرعة، لكن أزعجني أن لون البول ما زالت فيه تلك الصفرة الشديدة.

أنعشني رشّي بالماء البارد كثيراً، وحين خرجت من الحمام بمساعدة الدكتور منصف تلقفني الدكتور برنارد بملابسي التي كدت أنساها، ونزلنا من المصعد إلى مكتب برنارد في الطابق الأرضي، وجلست على الكرسي قبالته، وكانت هناك قهوة في السخان الموجود في الركن صبّ لي منها برنارد حصةً صغيرة في فنجان ومدّه لي فغمرتني رائحة البن السعيدة، فقلت له مداعباً:

– هل تريد قراءة الفنجان؟

ابتسم وقال:

– لا أريد أي شيء، لا أريد حتى أن تتحدث الآن عن أي شيء. أريد منك أن تتناسى كل شيء لفترة ما وسنتحدث عن تجربتك لاحقاً. – ثم استطرد يقول: – المهم هو الذكريات الواضحة وليس المشوشة، ومع الوقت ستتضح لك رؤاك أكثر، وتلك التي ستنطبع وتبقى معك هي المهمة عندي!

أشعل برنارد بولاعة صفراء كتلة التبغ الموجودة في فوهة غليونه وقال:

– ليس عندك أي مرض ولا إعاقة والحمد لله، لقد فقدت الكثير من الوزن كان يهدد صحتك، وقد استدعيت الدكتورة آندريه وستوصلك في سيارتها وتتابعك في الأيام المقبلة. حاول الراحة والعودة إلى الحاضر، أرجوك انغمس في الحاضر. يكفي ما عانيت من الماضي.

ثم قال منصف:

– الآن اهتم بتغذيتك وحاول استعادة نشاطك بسرعة. اذهب إلى السينما وتجوّل، وحين تقبل عليك الذكريات تملّص منها، حاول تجنبها... إنها مغرية لكنها قاتلة!

رشف منصف من قهوته في الوقت الذي كان فيه برنارد يدخّن بشراهة، واستغربت نشاطهم وحيويتهم في ساعة متأخرة من الليل، لكنّ منصف قال لي إنهم يجتمعون لاستقبال ومعاينة حالة معقدة ستتعالج في عيادتهم، وإن صاحب الحالة سيصل المطار رفقة أطباء أمريكان في حدود الساعة الثانية صباحاً.

غيّر منصف موضوع الحديث وعاد إلى الكلام عن وضعيتي قائلاً:

– أنا أحذرك من مغبة النوم المفرط والكسل المفرط، فقد لاحظنا في كل التجارب السابقة أن أخطر ما يتعرض له الناس بعد فترة الخمول التي تعرضوا لها عندنا هو الرغبة في مواصلة النوم.

قاطعه الشيخ برنارد بسرعة قائلاً:

– لا يا منصف، الأخطر بالنسبة إلي هو أنّ جلّ من ذهب هناك تختفي فيهم أو تضعف عندهم غريزة حب البقاء، وينعكس ذلك شرطياً على تصرفاتهم فيندفعون نحو المخاطرة تلبيةً لغريزة الموت، وهي غريزة قوية راقدة في كل إنسان!

أحسست بشعورٍ غريب ومبهم جراء تدخل برنارد فطلبت منه مزيداً من الشرح لكلامه الغامض، فقال:

– في كثيرٍ من المرات مثلاً يتعمّد بعض الناس في النماذج المسجلة عندنا حين قطع الطريق الوقوف في مواجهة السيارات المسرعة، وقد حصلت لهم حوادث جلها بسيط، وهم يظنون أنها ناتجة عن إرباك المرور ويقولون إنهم ما فعلوا ذلك بقصد، لكن علمياً ما يحدث لهم هو نوع من الترامي الانتحاري أمام سيارة مرعبة تلبيةً لغريزة الموت!

فقلت له ساخراً:

– ما الحل إذن؟

فقال:

– الحل يا صغيري هو حب الحياة وإعادة اكتشاف مباهجها.

خرجت بصعوبة لكن دون مساندة من أحد واقتربت من السيارة الصغيرة البيضاء التي تقودها الدكتورة آندريه، وكان الجو جميلاً ورائقاً في حدود الثانية والنصف صباحاً.

سعدت جدا حين لفحني برد العراء ودغدغ جبهتي بعد نصف شهر من الصوم والكمون والغرابة، فحمدت الله كثيراً وتلمّست العون من مسبحتي التي تعودت إخفاءها في جيب بنطالي وتدويرها عبر يدي.

فتح الدكتور منصف باب سيارة الغولف الصغيرة وساعدني على الجلوس على الكرسي، وعانقتني الدكتورة الجميلة مرحِّبةً وقد علت محياها الوديع كل أمارات الود والتضامن، ووقف الدكتور برنارد على الرصيف يودّعني.

انسابت السيارة الصغيرة بيسر على الطريق الصخري المرصوص ثم دلفت شارع شوسيه دو شارلروا ومنه دخلت بولفار لويز وفي هنيهة لفّت بمقودها بعد برج لويز الزجاجي ودخلت شارع أورور ومنه توقفت أمام العمارة رقم 24 من طريق المونـاستير.

ركنت آندريه سيارتها بهدوء ثم أرسلت يدها تعبث بشعرها قليلاً في حركة عفوية مليئة بالأنوثة الصارخة وقالت: لقد وصلت يا مسيو جوزيف. ثم ابتسمت واستطردت تقول: لا بأس، سأرافقك حتى الباب.

رافقتني حتى المصعد وصعدت وحيداً إلى شقتي وارتميت على سريري وأمضيت ساعات طويلة وأنا أفكر بجنوني وشوقي وصيامي. شربت الكثير من عصير البرتقال الذي نشّطني قليلاً وصرت كمن يتعجّل انبلاج الصبح للخروج والعودة إلى حياة الناس وضوضائهم وغلوائهم.

عند بزوغ أشعة الصبح دخلت الحمام وأمضيت قرابة الساعة في حوض الماء الدافئ ولاحظت في المرآة أن هزال الصيام زادني وسامةً ووضاءة فاستبشرت بذلك كثيراً وحمدت الله كثيراً.

خرجت من البيت ورحت أتمشى على رياض اتان ديكسيل، وهي مجرد حديقة تطوّق بركتين صغيرتين ومنفصلتين تقعان بين دير المونـاستير وساحة فلاجيه وتحيط بهما أشجار جلها من نوع الصفصاف الباكي والمنحني وقد انعكست أغصانها على صفحة الماء، وبما أن فصل الصيف كان قد حلّ في المكان مبكراً هذا العام فلم يكن عليها أي نضح أو ندى يمكن تشبيهه بالدمع.

جلست أتأمل المكان الرائع، وبعد برهةٍ قصيرة وقفت ونفضت عن بنطالي آثار العشب الذي جلست عليه ثم سرت بهدوء نحو جادة المقبرة، هناك حيث تفتح المقاهي باكراً، ووصلت إليها متعباً قليلاً.

أعدت في دقائق اكتشاف المكان وجلت ببصري في كل الزوايا ولاحظت فعلاً أن ميدان مقبرة ايكسيل مكان فلسفي جداً، خصوصاً في ساعات الصبح الأولى حيث يتقابل صخب شباب الجامعات العائدين من سهراتهم الحمراء مع صمت القبور النائمة في مواجهتهم.

دلفت مقهى 1900 وجاء النادل، وكان يعرفني من قبل لكنه لم يعرفني هذه المرة ربما لشحوبي وربما لهزالي وربما لأنني تغيرت كثيراً من الداخل كما يقول تلامذة الشيخ برنارد.

كتب النادل طلبي وعاد به في سرعة البرق... عاد يحمل قطع الكرواسان والقهوة بالحليب وعصير البرتقال ووضع أمامي الطلبية بميكانيكية وبرود.

جثمت في المقهى ألتقط أنفاسي من طول المشي، وحين انتظم تنفسي دخلت في حالة شرود غريب بمعايير الناس العاديين، فوضعت يدي على فمي لأنني كنت أتكلم وحيداً، وأنا أحب أن أتكلم مع نفسي وهذه عادة تلازمني منذ الصغر ولم أبحث لها عن علاج لأنها عادة طيبة ولا أفهم لماذا ينزعج منها البعض؛ لماذا ينزعجون من التفكير بصوتٍ عالٍ أومسموع؟

في حدود الساعة السابعة والنصف بدأت الحياة تدبّ في كل المكان وازداد جلساء المقهى والمقاهي المجاورة وغمر لغطٌ غريب الجو، وهو لغط افتقدته كثيراً، ربما لأنني سئمت الصمت المطبق.

استمتعت بالتفرّس والبحلقة في كل عابر على الرصيف أو جالس على الشرفات الخارجية، ورحت أتخيل كيف سيكون حاله لو تمكّن مثلي من ولوج الذاكرة النائمة في قرن برنارد.

أحببت أيضاً لغط المحلات حين أخذت تفتح أبوابها تباعاً: هذا صاحب كشك الجرائد ينظم واجهته ويرصص الصحف الجديدة مكان القديمة ويبتسم لبائعة الزهور العجوز، وذلك دكان مغربي صغير يكدّس مالكه بفظاظة صناديق الفاكهة الباسمة على قارعة الطريق.

حاسبت النادل ووقفت بهدوء وسرت خطوات نحو محل الفاكهة وابتعت من المغربي بعض التفاح وقطعت الشارع وتوجهت إلى بائع الجرائد المنشغل بمحادثة صاحبة الزهور وأخذت من درج الجرائد **جون آفريك** و**ليبراسيون** وجريدة **لو سوار** البلجيكية ثم تقدمت إلى داخل المحل الصغير.

وجدت أمامي رجلاً أشقر ينتظر هو الآخر، وكان خمسينياً حليق الشاربين وتطوّق حنكيه لحية مهذبة ووقورة. استغربت منظره الرزين، فقد ذكّرني بجنتلمانات بلادي الذين يحلقون الشوارب ويعفون اللحى، فابتسمت في وجهه، لكنه لم يبتسم ولم ينبس بكلمة واحدة.

عاد صاحب المحل مسرعاً ودخل وراء طاولة البيع، فهمس الرجل الخمسيني الأشقر الغريب بكلمات غير مسموعة وسريعة الوقع في أذن صاحب المحل فأجابه: «طبعاً يمكنك أن تصعد إلى هناك وأن ترى الكتب»، فانحنى الرجل الغريب ودخل وراء طاولة الكونتوار الصغير ثم فتح له بائع الجرائد الباب الخشبي الصغير الذي خلفه فدلف منه وتتبعته ببصري فشاهدته يصعد سلماً خشبياً صغيراً فقلت لبائع الجرائد:

– أنا أيضاً أريد رؤية الكتب الموجودة هناك.

– لا، تلك مكتبة «ازيتوريك»، لا بدّ لها من اشتراك. هي ليست لي، إنها وديعة نادٍ مغلق!

حاولت أن أفهم منه شروط دخول النادي أو الاشتراك في المكتبة، لكنه لم يتكلم بل ارتسمت على صفحة وجهه قسمات التذمر من هذه الفضولية المارقة، فحاسبته وخرجت من محله الغريب.

عدت أدراجي بسيارة أجرة رغم قصر المسافة لأني كنت منهكاً من المشي، وأمضيت جلّ اليوم في غرفتي، ونمت نوماً خفيفاً قرابة الساعتين أيقظني منه جرس التلفون.

سمعت صوت الدكتورة آندريه فاستبشرت خيراً وتخيّلت بسمتها العذبة، وكانت تطلب مقابلتي، فتواعدت معها في نصف ساعة، وحين جاءت وجدتني على الرصيف أنتظرها بسعادة وتحمّس، وذهبنا إلى مقهىً دافئ وفخم اسمه «متروبول» يقع في الطابق الأرضي من الفندق الذي يحمل نفس الاسم ويتربّع بجلال على ساحة «دوبريكير» في قلب بروكسل.

حاولت آندريه أن تمثّل عليّ دور الطبيبة النفسية التي تصغي كثيراً وتتحدث قليلاً، فرويت لها شيئاً مما رأيت، وكانت تسجّل كل ملاحظاتي في ورقة أمامها كما يسجّل كاتب الضبط في المحاكم أقوال الشهود.

فوجئت كثيراً من برود مشاعرها المفاجئ وقلت لنفسي: «لعل ما سبق ورأيت من شهوتها العابثة بجسمي المنوم غير دقيق» لكن أمر التفاحة ومشاهدتي عريها وكتاب مارسيل بروست وتمكّني من كبس زر النور لملاعبتها أمورٌ سبق واعترفت بها، واستغربت أنها في كل حديثنا تجنّبت بمكر ودهاء الخوض في كل ذلك.

أرسلت قدمي لمناغاة قدمها فتصنّعت البرود وسحبت قدمها وقد أحرجني ذلك بل جرحني، وفي لحظة ما من حديثنا أحسست بنوبةٍ قوية من الملل؛ الملل من مواصلة النقاش معها فاقترحت عليها أن نلتقي في وقت آخر لأنني بدأت أحس بالتعب وبالضجر.

رافقتها حتى السيارة ووقفت على الرصيف في مجاملةٍ مفتعلة حتى غادرت، ثم رحت أمشي شطر الساحة الكبرى في بروكسل، وبعدها عرجت على تمثال البرعم النافورة «منكن بيس»، وكان كعادته يمسك بقضيبه الصغير ويتبوّل، وتمنيت أن أُرزق يوماً بغلامٍ مثله وأن أراه يتبوّل كما يفعل «منكن بيس» الذي ضاع من أهله ذات يومٍ غائم وخلّده نحات بلجيكي مجنون، وجعل منه الفن المحاكي للأسطورة رمزاً منفرداً وعظيماً لهذه المدينة الصاخبة والوديعة في آن.

كنت أفضّل إطالة المشي لتعويض الخدر الطويل، لذلك همت على وجهي، تقذفني جادة إلى أخرى، وظللت أتفرس في وجوه الناس والكائنات والأشياء حتى أنهكني التعب فجلست في مطعم فاخر يدعى كانتربري يطلّ على ساحة سانت كاترين، وتعشّيت هناك بسمك السلمون المدخّن وشربت من الماء المخلوط بالنعناع.

حين هممت بالوقوف هالني وجود عدد كبير من الرجال يتحشدون على الرصيف أمام المطعم، وكانوا يلبسون جميعاً بدلات داكنة وقمصان بيضاء وربطات عنق سوداء أنيقة، فدخلت بينهم، وكانت ملابسي تشبه ملابسهم، ولاحظت أنهم يتحدثون بتباسط وعفوية، وسرنا سوياً حتى وصلنا إلى بناية في شارع لايكن الموازي لميدان دوبروكير.

دلفوا بوابة العمارة الفخمة فحاولت الدخول معهم، لكن رجلاً وسيماً حسن القيافة اعترض طريقي مبتسماً ومدّ يده لمصافحتي، فمددت يدي له، ثم أجبرني على التوقف حيث وضع يده الأخرى على منكبي الأيسر في حركة تنبيه وقال وهو يبحلق في ملامح وجهي: «هل عندك بطاقة عضوية؟» فأجبته بالنفي فقال: «هذا النادي خصوصي»، وسرعان ما التحق به حراس آخرون وتحلّقوا حولي ونظراتهم الشزراء تتطاير بالشرر. حاولت أن أُظهر لهم بطاقاتي الائتمانية لكنهم لم يكونوا على استعداد حتى للاستماع إلي!

تذكّرت أن سحنتي العربية في هذه الربوع العنصرية ليست محل ترحيب من أحد، فانسحبت برزانة حزينة وتوجهت إلى الطرف الآخر للمدينة قرب محطة قطارات الشمال؛ هناك حيث توجد البغايا والمومسات.

مومسات محطة الشمال من كلّ لونٍ وصنف ويتغاوين خلف زجاج فيترينات الزنا بوقاحة، ومنظرهن الفاجر يكفي في فسوقه وتبرّجه وجاهليته لإثارة أكثر جمال الصحراء ضراوةً وصبراً، وكنت مندحراً ومنكفئاً جرّاء صدّ الباب في وجهي وبكل بساطة كنت أريد أن أعمل بنصيحة الشيخ برنارد وأن أنغمس في الحياة بقوة!

استهوتني إحداهن بسرعة، وكانت ملامحها متوسطية ولها أرداف مكتنزة تشبه الغانيات القديمات في بلادي، فتفاهمت معها بلغة الإشارة وهي خلف الفيترينة، وحين تقدمت إلى بابها ودخلت أسدلت الستار على زجاج الفترينة وراحت ترحّب بي كما يرحّب التجار دوماً بزبائنهم.

أعطيتها ما طلبت من مال وأمضيت معها لحظات قبيحة جداً... وهل هناك ما هو أقبح من شراء الشهوة؟

مشكلة هذا النوع من الخدمات الجنسية دائماً تبدأ معي حين أهمّ بالوقوف والخروج، حيث تطغى عليّ مشاعر المهانة وتعتريني تلك الرغبة العارمة بالبصاق وأحياناً بالتقيؤ، لكن مع هذه الغانية حصل لي حادث طريف، فقد سألتني، وأنا أرتّب ملابسي وأتحضّر للوقوف، عن اسمي وعن بلدي، فقلت لها: اسمي جوزيف، وأنا من فرنسا.

لقد قلت لها الحقيقة القانونية البحتة لكنها لم تصدّق بل راحت تسخر وتتهمتني بالكذب. قالت بصفاقة ويقين وهي تقهقه:

– اسمك جوزيف ومن فرنسا؟ كم أنت كذاب... انظر قضيبك! – ثم انفجرت تضحك بخلاعة وفجور وأضافت: – هل هناك جوزيف واحد في هذه الدنيا يقبل بانتزاع غلافه؟ أنت مغربي أو جزائري غريب الأطوار.

لم أجد مناسباً أن أجادلها، وقد سرت إلي عدوى الضحك فخرجت وأنا أقهقه بخلاعة مثلها.

خرجت من محلها ونزلت إلى الرصيف، وبصقت كما يبصق العابرون من هنا دائماً. لم أنبس بكلمة، لكنني تذكرت محنة النسب التي ظلت تصحبني وتفسد علي صفو الحياة حتى هنا في هذه البلاد البعيدة.

تساءلت: هل يمكن لتلك المومس لو رويت لها كل التفاصيل أن تفهم قصتي برمتها؟

في الحقيقة لا أظنها كانت ستصغي إلي لأنها لن تضيع وقتها الثمين في ترهاتي، ثم حتى لو أصغت ما كانت ستفهم معضلتي أو تقتنع بها، فهي، بحكم المهنة، تحدّد انتماء الزبون بنوعية قضيبه وحجمه ووجود غلاف عليه من عدمه!

تذكّرت قضيبي فرحت أتلمّسه من فوق البنطال وأطمئن عليه فلقيته نائماً؛ وتذكرت أيضاً جدتي العدوانية وكيف قطعت رأسه عنوةً، هي وحلاق لكصر، وما لقيا من صعوبة في ذلك؛ وتذكرت استنجادهما بالجيران وصبية الحي وكيف حوصرت في زقاق مغبر دفاعاً عن سلامتي البدنية؛ وتذكرت الطريقة المحزنة التي تمّ بها الإمساك بي من قبل عشرات الصبية وكيف جررت إليهما وأنا أبكي وأقاوم.

لقد أمسكت الجدة بساعدَيّ وجلس الحلاق على رجلَيّ ثم قطع تاج ذكورتي بمقصه الصدِئ، وقد عانيت جرّاء ذلك من ألمٍ كبير لفترة طويلة نسبياً حُرمت خلالها لبس السروال وأنا في العاشرة من العمر، وكان الكل يتفرج على ما حصل لي ويبتسم بل ويسخر من مشيتي ومن تورّم ما خلق الله جرّاء عدوان البشر.

في أوروبا يقطع اليهود أبناءهم بنفس الطريقة، لكنهم يخدّرونهم في المستشفيات وبشكل أقل وحشيةً. ويمكنني أن أتصور، حسب معرفتي بأهل أوروبا، أنه لو لم يكن اليهود، ذوو المال والتأثير، يختتون ذكورهم لأقامت هيئات حقوق الإنسان الدنيا على من فيها للدفاع عن السلامة البدنية لكل جسم الإنسان من همجية المسلمين، ولتأسست جمعيات الرفق بقضبان البشر كما تأسست جمعيات الذود عن – أكرمك الله وأجلّك وحاشاك – كل ما يتجنب الناس العاديين في موريتانيا الخوض فيه احتراماً لمواضعاتهم الراسخة.

عدت أدراجي إلى ساحة دوبريكير وتذكرت آندريه، تلك الفاتنة الغريبة التي كانت معي هنا منذ ساعات، وقررت ألاّ أهاتفها بعد اليوم وألاّ أردّ حتى على تلفونها وأن أعاقبها على تناقضها وزيفها بالحذف الكامل من ذاكرتي. ركبت سيارة تاكسي وعدت إلى سرير النوم، ولم أكن أتصور أنه سيحدث لي ما لم يكن في الحسبان!

فتحت باب العمارة، كان هناك شخص في المصعد. انتظرت نزول المصعد، وكنت أعتمل برغبةٍ ملحّة في التبوّل، فزاد انتظاري المصعد من حرقتي. وأخيراً توقف المصعد أمامي وخرج منه جاري الذي يسكن في نفس الطابق، الخامس والأخير، وهو شخص باسم وطويل القامة، وكانت معه زوجته؛ تلك القبيحة التي ترمي دوماً بشررٍ ولؤمٍ جلي، وكان منظرهما معاً آيةً في التناقض وموعظةً كبرى من مواعظ الحياة.

تبادلنا التحية ودلفت المصعد بعصبية، ودخلت شقتي مسرعاً ورحت إلى المرحاض فوراً فأفرغت مثانتي وأنا أستذكر نعمة نادرة من أنعام الله التي خصّ بها أهل موريتانيا وهي نعمة التبوّل في العراء، وكم كنت أشتاق إليها. التبوّل في العراء لذيذ، وأجمل ما فيه أنه يعيد صاحبه إلى عذوبة الطفولة وشقاوتها المفتقدة، ولعل هذا ما أدركه أهل بروكسل بتقديسهم صنم «منكن بيس»؛ صنم البرعم النافورة الذي يجسّد أمنيةً مكبوتة في كل واحد منهم – أمنية التبوّل أمام الناس، كل الناس، وفي ميدان عام.

طفقت أتخلص من ملابسي بعصبية وهرعت إلى الحمام ثانية حيث مكثت في حوض الماء الساخن ربع ساعة، ثم وقفت وتنشفت ولبست درّاعة كانت معلقة على باب غرفة النوم ويممت وجهي شطر بيت الله في مكة وشرعت أصلي. قضيت صلوات المغرب والعشاء، وتنفلت واستعذت بالله من فجوري وفسوقي ومعصيتي.

بعد الصلاة اضطجعت على الأريكة وفتحت التلفزيون، وكان مملاً جداً فقمت وأخذت المصحف الشريف ورحت أتلو من سورة الرحمن، وبعد دقائق انتابني شعور مبهم بالنعاس فذهبت إلى مخدعي.

أطفأت النور في الغرفة وتمددت في الظلام غير الدامس تحت الغطاء محاولاً النوم. كان الجو هادئا وكنت أسمع تنفسي بوضوح، أسمع شهيقي وزفيري، ثم تناهت إلى مسامعي دقات قلبي فشردت قليلاً أفكر في دقات القلب التي يقال إنها إن توقفت تتوقف الحياة فوراً!...

لقد كان ذهني صافياً، وكذا كان سمعي، وحتى بصري رغم الظلام غير الدامس، لذا كنت أسمع بدقة وأرى النور المتسرّب من ستار النافذة، لكنني كنت مكبّلاً بشيءٍ ما، حيث لم يكن بمقدوري أن أتحرك!

حاولت تحريك يدي فلم تستجب.

حاولت تحريك قدمي كذلك فلم تستجب.

حاولت تحريك رأسي فلم أستطع.

أغمضت عينَيّ فاستجابت الرموش، ورمت فتحها فقبلت!

أمضيت وقتاً طويلاً وأنا أناوب وأسارع بين الإغماض والرؤية واتّهمت نفسي بالشلل الرباعي لكنني لم أذعر كثيراً، فقررت الصراخ لكن صوتي لم يكن مسموعاً رغم تحرك لساني في كل وجهة.

قررت الانزياح والسقوط من السرير لإحداث ضجة مدوية ربما تنبّه الجيران إلى ما يكبّلني بغتةً لعلهم يتدخلون وينقذوني مما يعتريني.

في محاولة الانزياح أحسست بأنني فعلاً تدحرجت من فوق السرير وأنّ الغطاء صار لا يغطيني، لكنني لاحظت أنني لم أسقط من حافة السرير بل كنت أطفو بجانبه!

التفتُّ نحو السرير فاكتشفت أنني فعلاً أغطّ في نومٍ عميق!

نعم، لقد شاهدت نفسي وأنا نائم، وتذكرت المرة الماضية في عيادة الشيخ برنارد فأحسست بفرحٍ وثقةٍ طارئة وتبدّد الخوف، ورحت أتأمل جسدي المسجّى فوق السرير؛ جسدي النائم، وتساءلت عن مدى جمالي وفتنتي وحسن صورتي، وقلت لنفسي: «لا غرو إذا تعشقت هذا الفتى الدكتورة آندريه بشهوةٍ فائقة خلال سباته، فنومه يجعله سمحاً كطفل رضيع... كيسوع الناصري ساعة الصعود في لوحاتهم الخالدة!

ثم استغربت قبحي في يقظتي... وملاحتي في نومي.

ارتفعت قليلاً فوق جسدي المسجّى وقمت بحركة انقلابية رائعة، وبسلاسة ويسر صرت تماماً فوقه: صار أنفي فوق أنفي، وعيناي فوق عينَيّ، وأطراف أصابع قدمي فوق أطراف أصابع قدمي، واستنتجت من المقارنة أن جسدي الأثيري يتطابق تماماً مع جسدي الواقعي!

ثم ملت كما تميل الطائرات في الجو لرؤية بطني فلم أتمكن من رؤية أي شيء وأحسست بالخوف يعاودني مجدداً فغمرني الظلام... الظلام الكامل المطبق.

لقد كنت صاحياً ومتيقظاً خلال الظلام الطويل والمزمن، حتى تناهى إلى سمعي صوت جرس التنبيه فحاولت التحرك واكتشفت أن أطرافي صارت تستجيب لأوامري فجأةً وأنني ما زلت في سريري، فتوثبت وحرّكت أرجلي وجلست على حافة السرير وأرسلت إصبعي للجرس المزعج فأطفأته، ثم نهضت واقفاً واستدعيت كل الأدعية التي أعرف وتلوت آية الكرسي، وكان جسدي غير متعب بالمرة بل كان في حالة ارتخاء، وكنت بدنياً كمن استيقظ من نومه للتو، لكنّ ذهني كان متشنجاً ومتعباً كمن لم ينم منذ زمنٍ طويل!

لبست ملابسي بسرعة ونزلت إلى الشارع، لقد كانت الساعة في حدود التاسعة صباحاً، وعبرت من قرب بركة اتانديكسيل ثم صعدت مع شارع الهيبودروم وقطعت الطريق الأقصر نحو شارع الجنرال جاك، وبعد فترةٍ وجيزة كنت في ساحة المقبرة ووجدتها قد اكتظت بالناس. وقفت أمام مقهى 1900 لكنني

لاحظت أن لا مكان فيه من شدّة الازدحام، فتقدمت نحو مقهى لابيكاس المجاور لبائع الجرائد ولعجوز الزهور.

جلست على كرسي في ركن المقهى وتناولت إفطاري، وبعد برهة خرجت وعرجت على بائع الجرائد فوجدته غائباً وقد خلفته بنت صغيرة تشبهه كثيراً: شابة في العشرينيات من العمر وقد سجّلت الطبيعة جلّ ملامحه الحادة على وجهها العذب البريء، فبادرتها بالتحية كمن يعرفها منذ زمنٍ طويل ثم سألتها عن بابا، فقالت إنه مشغول اليوم ببعض المشاوير في وسط المدينة، فقلت لها في صوتٍ هامس وواثق:

– كنت أنوي شراء بعض الكتب من فوق وقد هاتفته، هل قال لك شيئاً؟

قالت كمن تذكر أمراً: نعم الكتب الفوقية. ثم ابتسمت وقالت: تفضل. وفتحت الحاجز الخشبي فانحنيت ودخلت كما دخل الجنتلمان الغريب يوم أمس، وفتحت الباب الخلفي وصعدت السلم فوجدتني في مكتبة زاخرة بكتب السحر والشعوذة!

لقد كانت مساحتها تحتل حيزاً كبيراً، واستنتجت أن بائع الجرائد ابن أبالسة بامتياز، فليس بمقدوره أن يستأجر شقة بهذا الحجم من أرباح الجرائد والتبغ، وتوجست منه خيفةً، لكنّ الفضول دفعني لمعاينة العناوين واقتناء بعضها. ثم لاحظت أن هناك كتباً في ركنٍ بعيد تتحدث عن الخروج من الجسد وعن فيوضات الخالدين، ونزلت مسرعاً مخافة عودة بائع الجرائد وخازن أسرار المكان، وحاسبت الفتاة بتعجّل وتسرّع، وقد دهشت من أسعار تلك الكتب كثيراً فقد كانت مرتفعة شيئاً ما.

عدت أدراجي إلى بيتي وحاولت القراءة في كتبي الجديدة، لكنها لم تستهوِني فجلّها يتحدث عن العناصر النارية والترابية وعن كيفية تحول الهواء إلى مادة سائلة، ولعلي لاحظت أنها رغم غموضها وغرابتها منقوصة وملغومة ومغلقة حيث كثرت في جلّها اختصارات عويصة، ولاحظت في بعضها فراغات، وأحسست بالملل يتسرّب إلي وبشيءٍ من خيبة الأمل!

في بداية العصر نفضت يدي من تلك الكتب، وقد أحسست بالجوع، فلبست ملابسي وخرجت مسرعاً إلى موقف الترام فاستقللت الحافلة رقم 94 ونزلت منها في ميدان لويز وقد أطلت عليها من بعيد شرفات قصر العدل المهيب والشامخ في جبروتٍ معماريّ هيمن على المكان.

لاحظت، وأنا أتمشّى نحو مطعم صيني غير بعيد من الساحة، أن بعض عمال النظافة الذين كانوا يغسلون الشارع يتحدثون بالحسانية ويتضاحكون، فحمدت الله كثيراً وشكرت أبوَي على ما تركاه لي من مال حفظني من الفقر ومن الحاجة لممارسة أي عمل مذلّ أو متعب، والحقيقة أنني لم أمارس في جلّ حياتي أي مهنة بشكل منتظم.

لقد تركت الدراسة في التعليم الثانوي ورحت أبحث عن أموالي في العالم، وحين تحصّلت على ما تمكّنت من الحصول عليه التفّ حولي أصدقاء جدد دفعوني إلى الأعمال والمضاربة وخسرت مبالغ مهمة، كما تمكّن والدي ولد خيبوزي من النصب علي. وعلّمتني تلك التجارب أنّ من الأفضل لي، وقد جنّبني القدر جلّ أنواع القلق المادي، أن أتفرّغ للبحث عن الجمال والعيش بالكفاف مما ظلّ بيدي من ثروةٍ كبيرة راكمها أبوَي عبر السنين.

انتظمت أحوالي كثيراً بعد ذلك، فسهرت على عقاراتي التي تدرّ عليّ ما يكفي وأكثر، لكن لم يمنحني القدر من تستحق أن أقاسمها الحياة، فقد كانت أصولي وهوياتي الغريبة حاجزاً بيني وبين الكثيرات هناك: جلّ الراقيات الجميلات من بنات الأكابر في نواكشوط، التي هي مدينتي الأولى وموطن عشقي وهيامي، تجنّبن تطوير أي علاقة معي بسبب أصولي المبهمة وما حام حول أمي من شبهات.

لقد جرحني ذلك كثيراً فقررت الانطواء على نفسي، ثم فضّلت الانسحاب إلى فرنسا والعيش فيها، ثم نزحت إلى هنا منفياً عاطفياً إن جاز التعبير. ورغم كل شيء، لم أستطع نسيان قومي وأهلي هناك رغم قسوتهم!

كم من فاطمة وخديجة وعائشة أحببت صدفةً، لكنهن كنّ فور معرفتهن بأصولي ينقلبن وكأنني خدعتهن!

كنّ دوماً يهربن من مواجهتي، بأدب أحياناً وأحياناً بفظاظة، وأكثرهن قسوةً كانت عائشة التي قالت لي بصراحة: أمي قالت إنك لست ولد خيمة كبيرة!

ضحكت طويلاً منها ومن صراحتها الطائشة، لكني تألمت كثيراً من قصة الخيمة الكبيرة: كيف لم يستطع البدو نسيان الخيام الكبيرة والصغيرة وقيم الترحال المرير رغم تمدّنهم وتعلمهم وتحضرهم؟ لماذا جميعهم هكذا كذيل الكلب المعوجّ دوما لا يفيده جبيرة ولا تقويم؟

حتى قصة نسبتي الى ولد خيبوزي وخيمته الكبيرة بمعاييرهم الغريبة عقدت علاقاتي العاطفية كثيرا ولم يصدقها أحد، لذلك ظلوا يقولون: نعم إنه ولد خيبوزي، لكن خيبوزي أنواع وأشكال!

بكل بساطة، غياب الحضارة في ربوع بلادي طردني، وغياب الحضارة يتجلى في انعدام تقبّل الآخر وتفهّم خصوصياته، فلا أحد هناك يسعده أن يصاهر ابن منينة الذي لا يتّفق اثنان على هويته وهل هو فرنسي أم موريتاني.

المؤسف هو أنني حين جئت هنا محطَّماً ومعذَّباً حملت معي هواجسي وثقافتي المتوحشة من هناك وعانيت كثيراً من اقتلاعي من جذوري ومن ثقافتي وأصبحت مثل نبتة صحراوية غرست في تربة مبللة جداً، وهي من النوع الذي يقتله الماء الوفير، والمأساة أنها نبتة صحراوية أتت من تربةٍ معادية.

تبعاً لذلك – وربما لسببٍ آخر– لم أستطع إقامة علاقة مستديمة مع أي أنثى في هذا العالم الفسيح، فقد اعتبرتهن كلهن عاهرات لفترة طويلة، وأزعجني كثيراً فجورهن وعريهن المعلن والصارخ هنا. ثم استنتجت خلال عراكي المستميت لاكتشاف ما حصل لأمي أنني ربما تعشقتها أكثر من اللازم، وأنني ربما ما زلت رهين قيود أوديبية صلدة وقوية.

في الحقيقة لو كان بمقدوري أن أجد شبيهةً لها لكان بمقدوري أن أُشفى ممّا يسميه الشيخ برنارد «حالة الاشتباك المزمن والعويص» التي تعكّر حياتي منذ غادرت وتركتني وحيداً من خمسين سنة.

وها أنا فوق الخمسين ولم أستطع نسيانها!

ها أنا وحيداً فرداً ما زلت، من دون زوجة ولا ذرية!

لقد اشتكت مني وعانت معي كثيراً سيلفي؛ تلك الفرنسية الأنيقة والمعقّدة التفكير؛ وهي آخر غزواتي النسائية. اشتكت من هواجسي وعانت من عقدي وتألمت في صبر ومرارة من تناقضي وحسرتي، وحين فهمت حقيقة أمري ربطتني بشلة معارفها من تلامذة الدكتور برنارد واختفت... وتركتني!

لا ألومها، فمن حقها أن تعيش في رغد وهدوء ككل نساء العالمين. لا ألومها البتة، فأنا رجلٌ متحضّر وأتفهّم رغبتها في الهدوء والإنجاب. لذلك لم، ولن، أعاتبها على تركي دون وداع، ولا حتى على السفر مع عشيق جديد ووسيم والاستقرار معه في ثلوج الكيبيك البعيدة.

المهم أن تكون سعيدة والبقية تفاصيل سخيفة. ومن تلك التفاصيل السخيفة ما أزعجني قليلاً هو أنها كانت تزعم أنها تحبني وحدي، وبعد ذلك تبين أن لها عشيقاً آخر... «لاغارس» كما يقولون!

لقد سامحتها على كل حال...

وصلت المطعم الصيني ودلفت بوابته المزركشة الغريبة وجلست على طاولة فوقها قطعة قماش حمراء وقد تدلّت عليها نجفة ورقية كبيرة ينبثق منها نور خافت، وطلبت من النادلة طبق دجاج مع أرز تونكين.

حملت النادلة الطلبية، وكانت سيدة صينية صغيرة الحجم ولمّاحة العينين تفيض بالنشاط والحركة، وعادت في لحظات ومعها قارورة ماء، ثم توجهت إلى زبائن يجلسون إلى طاولة بعيدة، وراقبتها وهي تكتب طلبياتهم: كانا رجلاً وامرأة!

استغربت أن النادلة الصينية أشعلت شمعةً قربهما رغم أن نور الشمس ما زال يسطع على المكان من مرايا الواجهة القريبة من مكان جلوسهما.

أمعنت النظر في المرأة فخلتها زنجية، ثم اكتشفت أنها ليست زنجية، ولا حتى خلاسية، وتصورتها فولانية، ثم تأكدت أنها ليست فولانية، وأنها جزماً من رواندا ومن قبيلة التوتسي الفائقة الجمال!

وضعت التوتسية ساقاً على ساق فبرزت ركبتها المدورة من فستانها القصير الذي انحسر كثيراً حتى ظهرت منه مقدمة فخذيها الرائعين – كم هي شهية وطرية وجميلة!

لم أستطع منع بصري من التجول الشره والبحلقة الآثمة في جسدها البهيج: لقد تبدّت لي فوق العشرين بسنوات قليلة، وكان لون بشرتها الحليبي المخلوط ببنّ القمم الخضراء وقهوتها يكسوها بملاءةٍ براقة كأنها ملاءة الإنسان الأول، وكانت قسماتها الحادة بلقيسية جداً، وكان جيدها نفرتيتياً بامتياز، ووصلتني همهمة ضحكاتها شبه المكتومة التي تؤكّد من بعيد ذكاء وملاحة صاحبتها.

تمنيت محادثتها ومغازلتها، لكن كان يبدو أن الرجل الذي يجثم كأبي الهول قبالتها كان يشغل كل اهتمامها. ألقيت على وجه الرجل نظرة غبطة وحسد وأحسست بسابق معرفته، وحاولت تذكره وأين التقيت به فلم أستطع.

لقد كان رجلاً أوروبياً فوق الستين، أصلع الهامة، حادّ الأنف، يضع نظارات طبية دائرية، ويدل لبسه وجلوسه على يسرٍ وثراء، واستنتجت من فارق العرق والسنّ أنها عشيقته وخمّنت أنه يصرف عليها من ماله وتصرف عليه من شبابها، وأحزنني ما حلّ بقبيلة التوتسي من فواجع ومحن دفعتها لتنظيم أكبر عملية تصدير للحسناوات في تاريخ البشرية بُعيد مذابح البحيرات الكبرى، وهي عملية فاسقة وفاجرة جعلتهن ينزحن عن حزن إفريقيا لينشرن الحبور والسعادة بين مترفي أوروبا المسنين!

شرعت في الأكل ببطء وهدوء، وواصلت مراقبتهما من بعيد في نفس الوقت.

ثم في لحظةٍ ما تذكرت أين رأيت الرجل، نعم تذكرته، فقد شاهدته في التلفزيون منذ فترة قصيرة يتحدث عن الحوادث غير الطبيعية في علم النفس. نعم، إنه بروفيسور كبير في جامعة لوفان، لكني لم أتذكر اسمه.

استدعيت النادلة وحاسبتها على طلبيتي وطلبية التوتسية الجميلة ورفيقها وتقدمت نحوهما بأدبٍ جمّ، وحين اقتربت منها قمت بانحناءة مسرحية متصنّعة ورفعت يدي فوق رأسي كمن ينزع عنه قبعة، تماماً كما يفعل الفرسان دائماً حتى ولو لم تكن هناك قبعة، ثم التفتُّ نحو الرجل وقلت له:

– أستسمح أيها البروفيسور الكبير، أريد فقط أن أعبّر لكم عن إعجابي، لقد شاهدتكم في التلفزيون وقرأت كتابكم الرائع، والمعذرة عن أي إزعاج.

– هذا من لطفكم سيدي، شكرا جزيلاً. هل أنتم من المتخصصين في علم النفس؟

– لا، مجرد مهتم ببعض الظواهر الباراسيكولوجية، وقد قمت بتجارب مهمة برعاية الدكتور برنارد!

– برنارد صاحب عيادة سان جيل؟... إنه شخص خبير و... خطير!

وبدت أمارات الاهتمام بما قلت قويةً على وجهه، وكانت مصحوبة بتعابير أخرى غير مفهومة كأنها نظرات شفقة أو ما يشبهها! فقلت له:

– البروفيسور برنارد رجل عالم وقد اكتشفت معه أشياء مهمة سأكتب عنها، ويهمّني اطِّلاعكم عليها قبل نشرها.

– أنصحكم، على كلّ حال، بالحذر!...

ثم أدخل يده في جيبه وأخرج محفظته كمن يتحضّر لدفع الحساب لكنه فوجئ بأن قصاصة الحساب ممزقة ما يعني أنها سُددت، فالتفت نحو النادلة مستفهماً فأخبرته بإشارةٍ من يدها أنني من سدّد حسابه، فانطلقت أساريره وتهللت وقال مبتسماً:

– شكرا جزيلاً سيدي. – ووقف وناولني بطاقته وكتب عليها رقم تلفونه الجوال ثم صافحني وقال:

– سأستقبلك فور مهاتفتي، ولا مانع عندي من مساعدتك، لكني أنصحك بالحذر، فحلقات البحث غير الجامعية لا تخضع لرقابة فعلية ولا تحترم المعايير الأكاديمية وأحياناً لا تكترث حتى بالقوانين، والسبب في ذلك عدم وجود رقابة فعلية عليها. عندما نلتقي سنتحدث في كل ذلك بصراحة.

وقفت الجميلة أيضاً لتحيتي فاقتربت منها وكدت أغرق في عطر بلقيس، لكنني تمالكت نفسي وصافحتها بمودّة متصنّعاً الكثير من الاحتشام الزائف، وكان ملمس يدها حريرياً جداً ولا أعرف كيف منعت نفسي وشكمتها عن تقبيل يدها أمامه. ثم وقف الأصلع وخرجنا جميعاً من الباب في وقتٍ واحد، وأخذ بيدها وعرجا ذات اليمين وتوجهت أنا في الجهة المعاكسة.

دخلت «المول التجاري» ورحت أتفرّس في فيترينات البوتيكات لفترةٍ طويلة، ثم اهتز جرس التلفون الجوال في جيبي، وكانت آندريه، فتركتها دون ردّ، لكنها كانت مصرة على محادثتي وكنت لا أريد محادثتها، لذا أعادت الكرة مرات بإلحاحٍ غريب، وفي المرة الرابعة قلت لنفسي وقد تذكرت قبلاتها لجسدي المسجّى في العيادة: «لا تبالغ... لا تبالغ!». رفعت الجوال ووضعت سمّاعته قرب إذني فجاء صوتها أكثر وديةً ولطفاً.

أخبرتني أنها رأتني على قارعة الطريق، وأنها وحيدة وتجلس في مقهى نمرود المطلّ على الساحة، وأن لديها أموراً تريد أن أراها وأعلّق عليها.

توجّهت نحوها ووجدتها تجلس على التيرّاس الخارجي للمقهى فجلست قبالتها فناولتني تقريراً عن ذكرياتي وقد لخّصت فيه مجمل أقوالي، وحين انتهيت منه سألتني هل إذا كنت لا أزال أتذكر كل المشاهد التي أوردتها في التقرير؟

أجبت بنعم، ثم تذكرت أنني لم أخبرها بالمشهد العجيب الذي كانت هي فيه تشتعل أمامي بشهوةٍ عارمة وتستمتع بجسد رجلٍ مسلوب الإرادة! فقلت لها بصوتٍ هادئ وماكر:

– هناك تفصيل بسيط نسيته وهو أنني خلال مشاهداتي رأيتك في وضعية لم أجرؤ على سردها وقد تصورتها مجرد هلوسة!

ابتسمت واقتربت مني وقالت:

– أنا أعرف أنك تجنّبت ذلك لتجنيبي لوم الدكتور برنارد، فخلط المشاعر والمهنة أمرٌ شنيع!

ثم وضعت يدها على يدي وقالت في نبرةٍ معتذرة:

– أنا أدعوك لمشاهدة فيلم معي في السينما ولقد حان وقته.

سرنا إلى ساحة بورت دونامير حيث توجد قاعات السينما، وكانت خلال المشي تقترب مني جداً بل تلتصق بي حتى أن حرارة جسمها كانت تلفحني بين الفينة والأخرى.

انتهى الفيلم في غضون ساعة ونصف، وكان فيلماً فرنسياً جميلاً يلعب فيه جيرار ديباردييه دور البطل العائد من زمنٍ قديم، إنه مجرد فيلم من الكوميديا التاريخية المسلية... ثم تعشينا سويا وأفرطت آندريه قليلاً في احتساء النبيذ الأحمر، وكنت أشجعها على ذلك بقصد دفعها نحو سريري المتلهف لجمالها الخلاب. وفي منتصف الليل أوصلتني إلى العمارة رقم 24 من طريق المونستير لكنها تمنّعت قليلاً ولم تنزل وعوضتني بقبلات دافئة، ثم تداركت الوضع المنفلت وقالت بلهجةٍ حازمة: ليس الآن!

عادت الأوضاع إلى رزانةٍ مغتصبة ومنتزعة من بركان الشهوات الذي يرشح بالحمم، ففتحت درج السيارة وسحبت منه علبة صغيرة كعلبة حلوى وناولتني إياها، كانت فيها أقراص قليلة، وقالت:

– هذه الأقراص أمرني الدكتور برنارد أن أعطيها لك وستساعدك كثيراً في استعادة نشاطك، وهو يتوقع أن تتابع. أمامك أمور مهمة وقد كلفني بمتابعة تطورات كل ذلك معك... والآن يا عزيزي تفضل.

ثم أرسلت يدها لتقرص أذني وهي تقول في دعابة ورقّة:

– قصتي الخاصة معك سنرجئها قليلاً حتى ننتهي من الدكتور برنارد أولاً!

أذعنت لها ونزلت من سيارتها بأدب تلميذٍ تائب يعود إلى الصف، وسمعتها من النافذة وهي تقول لي في لطف:

– حبة كل يوم... كل يوم حبة واحدة.

حين وصلت باب العمارة استدرت لرؤيتها فأرسلت لي قبلة في الهواء ثم انطلقت تتبعها نظراتي الحالمة التي تتوق لانتهاء القصة مع الشيخ برنارد والتفرغ الكامل لمريدته الحسناء.

دلفت إلى سريري لأنام لكن سرعان ما تذكرت الحسناء وهي تقول: حبة كل يوم!

ففزعت إلى الصالون حيث رميت على الطاولة علبة الحلوى وأخذت حبةً وجرعت عليها من الماء وعدت إلى سريري.

أمضيت قرابة الساعة وأنا أتقلّب وأحدّث نفسي وأقارن بين جمال التوتسية وروعة الرومية آندريه ومزاجها المتقلب بين فرط الدلال وشدة القسوة.

ثم تذكرت الدكتور الكهل الذي حذّرني من برنارد، ذلك الشيخ الأغرب، وساورني شعورٌ بالخوف المباغت... نعم بالخوف من أن أكون عرضةً لتلاعبٍ ما.

تذكرت الشيخ برنارد وكيف وعدني برؤية أمي، وقد حصل لي بمعيته ما حصل من كشوفات، لكنّ صوت الكهل الذي التقيته في المطعم مع جاريته الحسناء ظلّ يحذرني بل ويصرخ بداخلي ويتساءل عن محتويات العلبة وعن ما حُقن في بدني خلال التجربة الطويلة من مواد أجهل أصلها وفصلها.

رحت أطمئن نفسي على صدق ونزاهة الطبيب برنارد وخوفه من القانون، ثم تذكرت مشاهداتي وكيف لاعبتني تلك الصبية التي فارقتني للتو وأنا نائمٌ خدر!

حاولت النوم لكنني لم أستطع. حاولت الحركة فلم أستطع أيضاً واكتشفت حالة الشلل والوجوم ترتهنني، وبعد فترة طويلة تمكنت من تحريك سبابتي قليلاً، لكنها ظلت مرتفعة وشاخصة في السماء ثم وقفت عليها نقطة ضوء تشبه نقطة الضوء المسلطة من فوق على المغني الوحيد في المسرح، ثم لاحظت أن سبابتي راحت تتغير تحت الضوء وتتحول إلى مجسم صغير لأمي.

نعم رأيت أمي بحجم إصبع!

كانت صغيرة لكنها كانت مكتملة، تماماً كما هي شخوص التلفزيون، ثم أخذت نقطة الضوء تتسع وبدأ يدخل معها أشخاص آخرون المشهد.

تسنّى لي أن أرى أمي سعيدة وفرحة في شرفة ظليلة في قلعة منينة... نعم في قلعة منينة، تلك القلعة التى بناها لها زوجها باتريك فوق التلة.

شُيّدت القلعة في نفس المكان الذي حصل فيه لأول مرة ذلك اللقاء بين فارس أوربي وأعرابية رمت بها صروف النوى نحوه وهي تبحث عن والدها الأسير.

لقد كانت فيلا وارفة ومسيجة ومن فوق سطحها تتيسر للجالس مشاهدة موج البحر وهو يرقص على بعد بهدوء ودعة. وقد انتصب في الركن غير بعيد من قلعة منينة مخزن اسمنتي ضخم يبدو أنها أجّرته لشركة «لاكومب» التي حولته إلى نقطة تبادل واستراحة لشاحناتها التي تقطع الصحراء في كل وجهة.

لا أعرف كيف صارت أمي غنية بهذه السرعة لكنها تغيرت كثيراً، فقد تعودت على الماء الساخن كل صباح، وتغيّر شكلها ولبسها كثيراً، وأصبحت بهية ومرفّهة أكثر من ذي قبل.

تمكنت أمي بدهاء وبسرعة تُحسد عليها من تحرير رفاق والدها، وقد استعانت على ذلك بذكاء صديقها الأستاذ كوتييه الذي أرسل إليها بطاقة حرية مؤقتة استصدرها من قضاء سان لويس واستطاع ببراعة إغلاق الملف لاحقاً وتمكّن من تسجيل القضية برمتها على المرحوم مختار الأعيور، دفين نواكشوط، وحده دون غيره من السجناء.

أرسلت سيدي ولد الأجرب وابهاه مكرمين في القطار من سان لويس، وحملا رسالة توصية منها إلى العزيز سمير، وأوصلهما إلى حافة افلة، لكنهما ظلا في لؤم البداة ونكرانهم للجميل ينسجان عنها الأساطير بكذبهما المعهود وسذاجتهما الكافرة بكل خلق، حيث روّجا عنها في كل مكان أنها أصبحت نصرانية الديانة، وسرت تلك الإشاعة كالنار في الهشيم.

وصار الكل يقول لقد تنصّرت منينة!

انتابت أهل تلك الربوع حالة قرف منها، وقد صلت إليها تفاصيلها بدقة وأسف في رسائل العزيز سمير المتتالية والتي تحيطها علماً بتفاصيل المنطقة الشرقية.

في بداية عامها الثاني في نواكشوط تلقت زيارة أسعدتها كثيراً حيث سمعت صوت ولد مختور يرتفع عند البوابة ويمنعه الجنود من الدخول وهو يصرخ:

– تريدون منعي من رؤية بنيتي منينة! أي عصابة أشرار أنتم؟

هرعت إليه بعفوية وترحيب، وكان معه شخص آخر، فأدخلتهما وفرحت بمقدمه كثيراً، وقد باغتها بحركة جميلة من حركاته الاحتفالية الشهيرة حين التفت إلى رفيقه وهو يقول له:

– تفضل شوف!... هل رأيت في هذه الدنيا أجمل من هذه الغزال؟ أجب يا سدوم؟ لا تنكر الحقيقة، لقد كنت تكذّبني. ها هي أمامك، قل الحقيقة ولا تخشى شيئاً.

باغتها ولد مختور وبوحه المفاجئ واستعراضيته المستهترة، واستظرفت أنه ما جاء برفيقه إلى هنا رغم طول السفر ومشقته فقط لكي يتمتعا بمشاهدتها، وأن ذلك ربما أعقب، كما يزعم، مخاصمة شعراء في مضارب بعيدة أو شيئاً من ذلك القبيل، فأطربها ذلك كثيراً.

أجلستهما على أريكة في الشرفة الكبيرة التي تواجه البحر وخرجت إلى العمال في المطبخ وأمرتهم بتحضير وليمة كبيرة وسريعة من لحم الخراف، وأتت بأقداح مملوءة بحليب النوق وناولت كل واحد قدحاً، ثم سألتهما من أين جاءا وكيف؟

قال ولد مختور:

– هو هذا يدعى سدوم، وقد قال إن ما أقول عنك من جمال مبالغة الشعراء وأكاذيبهم وأزعجني ذلك كثيرا فقررت اصطحابه معي ومفاجأته بك. وقد كان يعتزم مثلي السفر من تجكجة إلى أطار ومنه إلى واد نون، فقلت له «لنعرج بالطريق الساحلي الآمن» ووعدته بأن فيه لي من الأصدقاء من سيوصلنا في ظروف أحسن، وها هو عندك، وقد أخبرني سمير بأمورك وأن الله قد فتح عليك ومكّنك من خزائن الأرض فقلت: نزورها زيارة قصيرة ومنها الحج والعمرة!

لاحظت منينة أن سدوم محرج منها وربما مذهول، لكنها لمحت في عيونه عطشاً وشعراً، فقد لمحت توثّب القصيدة في حنجرته، وربما سمعت من بعيد رعودها وخشيت أن يتعثر لسانه بالتغزل فيها خوفاً من سطوة زوجها، فهو لم ينبس بكلمة رغم تحديات ولد مختور المتلاحقة.

توجّست من تحفظه وظنّته ربما يستصغر نفسه أمام حقيقة ما شاهد من عزّها، فاهتزت قليلاً في مشيها أمامه لتذكّرهم أنها ما زالت أنثى، خرجت من الفراندا وعادت ثم خرجت، ولم ينبس سدوم بكلمة فتشمّعت على عتبة باب الصحن الداخلي للحظات ثم التفتت نحوهما، وكانا وراءها، ودارت وأقبلت إليهما، وقبل مجلسهما بأمتار توقفت كمن تذكر شيئاً وأرسلت يدها إلى فوق وحلّت ربطة المنكب الأيسر في ملحفتها ثم حلت ربطة المنكب الأيمن فانهمرت الملحفة بسرعة عند قدميها، وكان الفستان ينسدل بدوره وبدت عارية كيوم ولدتها أمها، ثم رفعت يدها وفكّت شعرها فانسدل كالشلال على المنكبين، والتفتت نحو ولد مختور ورفيقه وابتسمت وقالت: مرحباً!

استغرق المشهد الرائع لحظةً قصيرة وانسحبت منه ضاحكةً، ثم عادت إليهما محتشمةً وقد احمرّت وجنتاها خجلاً.

أقسم ولد مختور أنها أجمل من ولاّدة بنت المستكفي وأجمل من ليلى المجنون، وهزّ سدوم رأسه واعترف صراحةً أنه هُزم، ثم صاح في فسوق وعربدة وقد وضع إصبعيه في أذنيه مفتعلاً علامة الطرب وقال:

– من لم يرَ ما أُتيح لنا أن نرى للتو فقد خسر نصف عمره، بل كل عمره!

سحبت إزارها، وقد رفعته عن ساقيها، وخرجت ومشاعر النصر تلعب بها بقوة، وحين عادت كان ولد مختور يدخن من غليون يشبه غليون سمير ويبتسم في أبوية وفخار.

التحق باتريك بضيوف زوجته واستمع إلى غناء سدوم وعزفه الهادر الذي تحدّى ليل المكان وريح البحر وبنات آوى.

أطربهم ذلك المغني الأسمر القصير واستغربوا كثيراً صيحاته وعويله، وصعوده وهبوطه، وصعقوا من شعره المنفوش وهو يهزه على إيقاع ألحانه المجنونة، واستلطف باتريك كثيراً الشيخ الغريب الذي يدخن ويصفق ويرقص أحياناً دون مبالاة ولا تحفظ، وقد همست له منينة بقيمتهم وشهرتهم الكبيرة فأحسن وفادتهما.

في الصباح استدعى سائقه ليحملهما في سيارة الحاكم وأمره أن يوصلهما إلى قلعة اكجوجت البعيدة، وأكرمتهم منينة بمبلغ محترم وبأقمشة ثمينة.

تغنّى سدوم بشعر ولد مختور في منينة هناك وفي كل مكان وجعلاها أكثر جميلات موريتانيا شهرةً.

جعلاها أسطورةً حية، ونقلا تفاصيل المشهد الاحتفالي الذي خصّتهما به لكل الناس بأمانة ودقة... نقلاه بالشعر وبالغناء، وذلك ما شجّع الكثيرين بعدهم لشدّ الرحال والسفر لرؤيتها.

زارها أناس من كل صنف وتغنّوا بها بكل اللغات، وظلت وفية لباتريك الذي لم ينزعج كثيراً من زوارها الكثر، بل اعتبر ذلك طبيعيا جداً ورقيقاً ومقبولاً.

كثيراً ما كان يعتقل عساكر القلعة بدوياً ضالاً ويتّهمونه بالترصّد والسعي لسرقة ما، وحين يأتون به مقيداً إلى قلعة الحاكم يكتشف باتريك أنه مجرد شاعر مبتدئ جاء يبحث عن الإلهام عند سيدة الربوة، فيشفق عليه ويتركه يعود بخُفيّ حنين بعد أن سافر من بعيد ملتمّساً الفوز منها بنظرة أو كلمة.

تسارعت الأحداث في صيفها الثاني في نواكشوط، حيث توقفت حركة الطائرات، وسُحب جلّ رجال الجيش من نواكشوط والجريدة، وبدأت الحرب تتحول إلى حقيقة يومية في مذياع الحاكم باتريك الذي صار يمضي كل وقته في قلعة منينة ولا يزور قلعة الحكم إلا قليلاً بسبب تسمّره الدائم أمام الجهاز الضخم الجاثم في وسط الصالون.

ذهلت ذات يوم حين ضبطت زوجها وهو يبكي كالطفل، وعرفت منه أنّ باريس سقطت في أيدي العدو النازي.

كانت إذاعة «بي بي سي» وإذاعة ألمانيا أشدّ ضراوةً خلال توقف باريس عن البث لساعات طويلة ومؤلمة جعلت باتريك يتلوى كمن دخل سكين في كبده ومزقها بوحشية... كيف لا وقد اختفت فرنسا دون سابق إنذار.

كان يردّد أنه لا يفهم السهولة التي سقطت بها باريس في يد هتلر وكيف لم تسقط السماء على الأرض!

في الثامن عشر يونيو سنة 1940 سمع باتريك، المغموم والباكي والمنبطح كمشلول جاثم دوماً قرب الراديو، نداء الجنرال ديغول من لندن الذي يقول فيه «إننا خسرنا معركة ولم نخسر الحرب» فتحركت لواعجه ووقف بعسر. وفي الصباح سافر إلى سان لويس حيث أمضى أسبوعاً أبرق بعده أنه في داكار، وعاد بعد شهر وهو أكثر حزناً. وبعد قرابة الأسبوع قال لزوجته إنه سيسافر خلسةً ليلتحق بلندن، ونصحها بالعودة إلى مضارب أهلها إن شاءت، وشرح لها وهو يبكي حقيقة اختفاء فرنسا من الوجود.

حاولت ردّه عن ما اعتزم لكنه ظل مصراً على الذهاب بفروسية ذكّرتها بجنون المناذير وقصصهم الأسطورية... تذكّرت والدها الذي هشّم رأس الأسد وتهشّم ليشرب الناس العطاش، وقالت لنفسها: «كل الرجال مثله في لحظات الفخار المجنونة لا يبالون بشيء».

قال لها إنه لم يتدرب على قيادة الطائرات كي يمضي حياته في عمق الصحراء، وإنه إن كُتبت له الحياة فلن يتخلى عنها وسيعود إليها... وإن مات فلا عار عليه.

بكت كثيراً واستبكته، لكنه في النهاية اختار فرنسا ورحل.

رحل في سيارة الدولة، وعادت بدونه، وقيل إنه صعد ظهر باخرة صيد من فيلا سيسنروس واختفى مع الصيادين الإسبان في بحر الظلمات، وقيل إنه سافر مع الكوماندان بيزو من مطار بورت اتيين جواً ونزلا في لشبونة ومنها سافرا إلى لندن.

قيل... وقيل... لكنها لم تستطع معرفة أي شيء ممّا حصل. كل ما تتذكره هو أن فرنسياً حلّ محله وحاول التغزل بها بفجاجة، وأنها صدّته ومنعته. وبعد شهرين من غيابه باغتها عساكر جاؤوا من سان لويس في ليلةٍ مخبولة وحمقاء واقتادوها في سيارة للدرك، ثم تعرضت للمساءلة والتحقيق طويلاً في أقبية الجزيرة الرطبة والمؤذية.

قالوا لها إن باتريك هاجم داكار في طائرات الإنجليز، وإن أسيراً بريطانيا وقع في أيديهم اعترف باسمه وأقرّ أنه كان معه، وفهمت أنه لعب دوراً قيادياً وكبيراً في تلك المعركة الفاشلة قبالة داكار، وهي معركة مؤسفة أُريق فيها الدم الفرنسي من الجهتين.

قالت للمحققين إنها مجرد بدوية لا تعرف معنى كلامهم وتهمهم، وأن باتريك غادر دون اهتمام بها، وأنه تركها دون وداع!

أطلق سراحها وعادت أدراجها إلى قلعة منينة فوجدتها خاوية على عروشها وشبه مهدّمة، واكتشفت أنّ حرس قلعة الحاكم قاموا بتسييب المكان بهمجيتهم المعروفة. استغربت سهولة تقلّب أحوال

البشر ونسبية مشاعرهم، فنفس العساكر الذين كانوا أقرب إلى العبودية نحوها قد فعلوا ببيتها الأفاعيل. وأحزنها ذلك كثيراً، وتذكرت سطوة زوجها وتقلبات الدهر، وجرفتها موجة من الحنين إليه.

ظلّت تقاوم الذكرى وحيدةً وليس لها من متاع الدنيا سوى بعض الحيوانات في مراعي الشيخ الرحموني وأجرة المخزن التي تكفي لإعالتها بالكاد.

قررت أن تبقى وتنتظر، وهل أمامها خيارات أخرى؟

لقد نقل إليها كثيرون أن زينب قد تزوجت من الأقرع وأنجبت منه بنتاً أسمتها منينة تعبيراً عن غضبها منها وإعلاناً لموتها في عرفهم!...

على كل حال، هي ليست بالمتعطشة لرؤية تلك الذرية الملوثة، ولا تفخر بنسل أمها التي تزوجت من الأقرع الرخيص والخائن في وقت كان فيه مختار الأعيور لا يزال على قيد الحياة بعد أن تحصّلت على ورقة فتوى تطليق من الشيخ أحمد قاضي تامشكط المائل والفاجر.

كتب إليها سمير رسالةً يقول فيها إنه سمع أن شقيقها سيدي ترك المدرسة بعد أن عيّره أحدهم بأخته الكافرة، وأنه توعّد وقال إنها لو عادت إلى تلك الأرض فسيقتلها عقاباً لها على هروبها مع النصارى وتنظيفاً لسمعة العائلة.

وقيل لها إنه صارت عنده بندقية يهدّد بها الناس!...

وقيل لها إن البندقية هدية من زوج أمه الجديد لقتلها إن عادت.

قررت البقاء قرب الشيخ أحمد ولد الرحموني وتشبّثت به، فلم يخيّب أملها فيه بل ارتحل بخيمته ونصبها أمام قلعتها وجلس في البوابة وراح يدوّر مسبحته بهدوء وسكينة.

اكتشفت مصدراً جديداً للرزق كثيراً ما نصحها به الشيخ الرحموني من قبل لكنها لم تكتشفه إلا بعد هروب باتريك، فتحولت إلى تاجرة محترفة وبدأت تستورد عبر لاكومب شحنات من السكر والشاي وبعض الأقمشة، وراحت تضارب على الفرق في السعر، وقد درّ ذلك عليها دخلاً مريحاً بسرعة كبيرة، ومع الوقت تحولت قلعة منينة إلى سوق صغير يأتي إليه جلّ سكان الساحل، فاكتتبت محمد بن الشيخ الرحموني مساعداً لها وبعثته مرات عديدة إلى سان لويس وأطار وبورت اتيين لمتابعة تجارتها وزبائنها هناك.

لفت نشاطها التجاري في شهور قليلة نظر شركات «بوردو» في سان لويس، فتعاملوا معها ويسّروا لها الاستدانة من مخازنهم. وفي سنة 1941 اشترت أول شاحنة لنقل البضائع والناس بقرض من شركة «سيفاوو»، وسيّرتها على الخط الإمبريالي بين أطار وسان لويس مروراً بنواكشوط وقلعة منينة.

في نفس السنة وصلتها أول رسالة من باتريك، وهي الرسالة التالية:

... فور لامي 24 مارس 1941

حبي الصحراوي وحبي الوحيد

أغتنم وجودي في قلعة لامي لأكتب لك هذه الحروف، وكوني على يقين بأنك تسكنين إلى الأبد في قلبي.

لا أعرف إن كنت تستطيعين الانتظار، لكن ستتحرر فرنسا قريباً وأعود إليك. إن المنطقة التي توجدين فيها من أرض فرنسا يقودها أراذل خونة يفضّلون الخنوع أمام الأمر الواقع وتجرّع الهزيمة، وجلّهم أعدائي، لذلك أتمنى ألاّ تقبلي صداقتهم لأن ذلك يؤذيني كثيراً.

حامل هذه الحروف هو العزيز كريسيتيان، لقد بحت له بتفاصيل حياتنا وكيف التقينا كي تستطيعي تمييزه من بين الخونة والكلاب النازية التي تلوث أرضنا هناك.

اطلبي من الشيخ أن يصلي من أجلنا،

قريباً سننتصر وقريباً سأعود.

المخلص باتريك

طلب منها كريستيان، حامل الرسالة التي تنضح بعطر باتريك، أن تساعده على الوصول متخفياً إلى سان لويس، ويبدو أنه جاء متخفياً إلى قلعة منينة قادماً من الصحراء الإسبانية، فخبّأته في قعر دارها، وحين عاد مدير أعمالها كلّفته بتوصيله بالسيارة عبر الطريق الساحلي الخطر الذي يجعل من الشاطئ ساعة الجزر خطاً سريعاً وآمناً من الفضوليين.

وصلتها رسالة باتريك في ديسمبر، وكانت قد كتبت في مارس، لكنها لم تقنط يوماً منه لأن الشيخ الرحموني ضمن لها عودته منتصراً وطمئنها كثيراً عليه.

أهملت زينتها تماماً، وابتعدت عن الشعراء وأجواء الطرب، وأصبحت خلال تلك الفترة متبتّلةً شغوفةً بالعبادة ومنشغلةً بالتجارة، رغم أنها كانت تتابع أخبار الحرب عبر المذياع وكانت تأتيها الصحف والكتب من سان لويس في كل حين.

في نهاية السنة زارها حاكم القلعة متذللاً ومتمسّحاً يعتذر عن أي خطأ أو تقصير حصل منه ويطلب الصفح عن غلاظات أتباعه، فقبلت اعتذاره لكنها لم تفهم بسرعة ما الذي دفعه إلى الاعتذار، وتوجّست منه وتخيّلت أن أمراً طارئاً قد حلّ به. وحين عادت شاحنتها في المساء وجدّدت بطاريات المذياع واستمعت إلى نشرات الأخبار انشرح صدرها وفهمت نوبة التذلل والاعتذار التي دفعت الحاكم نحوها، فحكومة إفريقيا الفرنسية الغربية قد انضمّت إلى فرنسا الحرة وبايعت ديغول فجأةً، فأحست بطعم النصر وفرحت كثيراً.

لم يعد باتريك فوراً لكن رسائله تتالت من كازابلانكا ومن الجزائر، وخلال سنة 1943 صارت رسائله أطول وأكثر حنوّاً وهياماً، ولم تعد تصلها عبر حامل مذعور ومتخفٍّ بل جاءت عبر البريد ونقلها الحاكم شخصياً إليها. ثم استدعاها الحاكم إلى مكتبه مرات عديدة وسلّمها رزماً نقدية كبيرة في كل مرة وهو ويقول متمسّحاً في تزلّفٍ حقير: هذه رسالة من العزيز باتريك!

تحولت نواكشوط إلى مطار لتموين الطائرات الأميركية والبريطانية العابرة للشمال، وكانت تلك فرصة تجارية كبيرة لمنينة، وقد اغتمنتها بقوة، حيث تحصّلت بسهولة على عقود ضيافة وتزويد الطائرات العابرة والكثيرة بالبترول والأغذية، وتحولت القلعة إلى فندق وسكنت تحت خيمة الشيخ لفترة طويلة.

حُرّرت باريس ثم انتهت الحرب، وأصبحت منينة غنية ومعروفة في كل أرجاء الإمبراطورية دون سابق تخطيط أو دراسة.

الحرب تفرز دوماً أثرياء جدداً، والحرب العالمية الثانية جعلت أمي غنية بسرعة كبيرة.

في أسبوع واحد اشترت عمارة صغيرة في جزيرة سان لويس وابتاعت أخرى في وسط داكار، وهي مازالت تنتظر عودة باتريك، الذي تركها وليس بينها وبينه أي رابطة قانونية، وقد ندمت على عدم طلبها منه القيام بزواج مدني كان سيمنحها بموجبه اسماً فرنسياً مهاباً في تلك الأيام من تاريخ المستعمرات.

عاد باتريك وقد اشتعل رأسه شيباً لكنه مازال بكامل قوته، وعاد عاشقاً كما كان، وعاد العطر إلى أردان منينة وتخضّبت بالحناء بعد زهديات طويلة ومريرة.

عُيّن آمراً على القاعدة الجوية في سان لويس، لكنها طلبت إليه العودة بها إلى بلادها فوعدها بذلك.

تزوجا مدنياً يوم 14 فبراير 1946...

تزوجا أمام عمدة سان لويس، ثم سافرا إلى فرنسا بحراً عبر جزر الكناري وماديرا ومضيق جبل طارق ومرسيليا. وعادا جواً بعد شهر أمضياه مع عائلة باتريك سحرت فيه كل من التقاها في تلك الربوع، ولم يكن ذلك صعباً، فقد سبقتها شهرتها إلى هناك وكتب عنها الكثير من مشاهير العالم شهادات عذبة ورائعة واعتبروها من المقاومات الكبيرات للنازية.

خصّص لها كريستيان ديلانو، الصحفي المقاوم، صفحات جليلة تصف شجاعتها خلال رحلته المشهورة لاستمالة غرب إفريقيا ودياً بعد فشل الحلفاء في السيطرة عليها عسكريا، ونقلت صحف من بريطانيا وأميركا صورها بلباسها التقليدي وأطنبت في ذكر جمالها وتحدثت عن وفائها وصمودها في وجه الشمولية والظلامية.

قُلّد باتريك أوسمةً كثيرة وخرج من الحرب عقيداً في سلاح الطيران، وقُلِّدت منينة بلانشيه وسام رفيقة التحرير من رئيس فرنسا علّقه نيابةً عنه الماريشال دلاتر د تاسيني وقد وقفت إلى جانبه زوجته، تلك الماريشالة المذهلة الجمال، في حفل مهيب في قصر روم بداكار.

نزولاً عند رغبتها طلب باتريك العودة إلى الإدارة والعمل في موريتانيا، ولُبّي طلبه على مضض فعادا إلى موريتانيا، حيث عُين باتريك حاكماً للترارزة[7] الجنوبية وتسلّمت منينة قصر روصو وأمضت فيه معه قرابة عقد من الزمان، ولم تنتقل منه إلا لتحتل قصر سان لويس بعد أن عُيّن باتريك والياً على كل المستعمرة الموريتانية.

لم تترك التجارة لأن باتريك عاد من حربه، بل واصلت العمل بذكاء وصبر، والتحق بها كل ذكور عائلة الرحموني وتمددت فروع شركتها في كل قرية من المستعمرة الشاسعة.

فتحت فرعاً في امبود وشيّدت مخازن كبيرة في كيفة وتجكجة وسيلبابي، وكان عندها وكلاء في كل مكان وممثلون يسوّقون بضائعها الكثيرة.

ازدادت شاحناتها وتوسعت أملاكها كثيراً، وفي يوم ما من ربيع 1954 تعرّفت إلى شاب فرنسي مغامر يدعى بيير لاكارديوك اقترح عليها تأسيس شركة طيران صغيرة، فاستشارت باتريك فوافق بعد لقائه بالطيار الشاب، وتقدمت إلى مصرف «كريدي ليونيه» في باريس واشترت طائرة ركاب صغيرة تتسع عشرة ركاب وأطلقت عليها اسم «منينة اير بروس»، أي «منينة لطيران الأرياف».

حصلت هذه الشركة على عقود مذهلة، حيث أجّرت طائرتها فور وصولها من قبل مكتب البحث الجيولوجي الفرنسي، وتوسّعت في فترة يسيرة حتى أصبح عندها أسطول من أربع طائرات صغيرة تحلّق في سماوات موريتانيا كل حين.

في صيف السنة نفسها اكتشفت لذّة التحليق في الأعالي كطيّارة، وتمكنت بعد أربعة أشهر من التدريب المتواصل من أن تقود طائرتها بنفسها وتنزل بها في سهل نواكشوط، وقد تعجّب البدو كثيراً من منينة التي صارت تحلّق في السماء!

كل هذه النعم والنجاحات التي تتابعت لأمي لم تكن كافية لإسعادها، فقد بدأت تقترب من عقدها الرابع دون ذرية!

لقد كانت رؤية الصغار تدفعها إلى الحزن، وظنّت أنها عقيمة، وهرعت مرات عديدة إلى باريس دون جدوى، ثم تعرض باتريك لفحوصات مماثلة وتأكد لديهما أن مشكلةً جدية قد تلبّست باتريك منذ زمن طويل وأن احتمالات الإنجاب من هذا الرجل ضعيفة، وقد لفهما هذا الخبر بحزن كثيف ومزمن فسافرا

---

[7] الترارزة الدائرة السادسة في التقطيع الاداري الموريتاني و تحمل اسم امارة عربية موجودة في جنوب غرب موريتانيا

جواً إلى الشيخ ولد الرحموني يستغيثان به، فدخل خلوةً طويلة وخرج منها وقال لهما إنهما تعرضا لغضب كبير وسحرٍ شرس ونصحهما بزيارة المناذير لأن قطع الرحم يؤدي إلى هذا النوع من اللعنات، وبالإسراع بالحج إلى بيت الله لتأدية الفرض وتوصيل الرسالة – الوصية التي كلّفها بها مختار الأعيور.

في فبراير 1957 قرر الوالي باتريك بلانشيه زيارة قلعة تامشكط لأول مرة في حياته، واصطحب معه زميله الجنرال جيروم والي السنغال وحاكم تامشكط الأسبق والكاتبة أوديت بيكودو مستشارة قائد إفريقيا الفرنسية وبعض مرافقيه والشيخ أحمد ولد الرحموني، واستأجر طائرةً من شركة «منينة اير بروس» وتكلفت منينة بقيادتها، حيث نزلت بسهل تامشكط غير بعيد من التامورت والدموع تمنعها من الرؤية الجيدة.

بكت لأنها تواجه جذورها وأحزانها من جديد. لقد تذكرت من أين وكيف أتت إلى هذا المكان على حين غرة.

عند سلّم الطائرة اصطفت مفرزة عسكرية كاملة استُقدمت من داكار، وأخذت تعزف نشيداً غريباً ستعرف منينه فور سماعه أنه تمّ استلهامه من غناء سدوم وصبابة ولد مختور بها.

عند نزولها رأت الريح من بعيد تعبث بدرّاعة ولد مختور وقد استند على منكب سمير الذي مازال يدخّن من غليونه بهدوءٍ وفخار، وكان منظرهما حزيناً ومرحاً في آن، فتذكرتهما على رصيف القطار في سفرها الأول.

اندفعت نحوهما، وشوهدت وهي تترامى في حضنيهما، وكاد بعض شيوخ البدو أن يموتوا حسرةً وغيظاً من رؤية هذه الزانية وهي تلامس محارم الله في وضح النهار!

توقف عشرات البدو في صفٍّ طويل، وراحت نساء يزغردن ترحيباً بالوفد الزائر، وتقدّم الجمع إلى القلعة، وجلست منينة على أريكة الصالون الذي كانت ترتبه وتنفض الغبار عن كراسيه وتكاياه منذ زمنٍ بعيد، يوم كانت مجرد خادمة أسيرة وذليلة.

صعقت من بقاء اللوحة التي تحمل صورتها في مكانها وكأنها غادرت المكان يوم أمس... ثم تقدمت أوديت دو بيكودو إلى اللوحة السامقة الطويلة ووقفت على كرسي وقبّلت شفاهها المرسومة في فجور وشهوة، فصفّق لها الجالسون وتصنّع الشيخ الرحموني الهدوء وواصل تدوير مسبحته.

في المساء تقاطر شيوخ القبائل تباعاً لملاقاة شيخ النصارى، واختفى ولد الرحموني في سيارة سمير، ومعهما اختفى ولد مختور.

في الصباح التالي عادوا وقد تلبّستهم رهبةٌ حزينة، فقد رفضت الأم زينب المجيء معهم ورفضت قبول عودة منينة لزيارتها وقالت إن منينة بالنسبة إليها ماتت منذ زمن طويل. حاول ولد الرحموني أن

يقنعها بأنّ باتريك قد أسلم على يديه، وأن مختار الأعيور قبل الأمر في حياته وأنه كلفه بتزويجها، لكنها لم تكن تريد حتى أن تسمع منه... بالنسبة إليها، منينة ماتت منذ زمن طويل!

قال لها الشيخ الرحموني في ختام عرضه مباحثاته مع الأم وقد كست وجهه الحنون رزانة الحكمة وعفّة التقوى:

– أنتِ قمت بما عليك. صِلِيها بمال كما كنت تفعلين دائماً بشكل غير مباشر، واصلي إرسال النقود إلى زوجها كما كنت تفعلين، والآن لم يبقَ عليك إلا السفر إلى مكة المكرمة والبقية على الله...

عاد الجميع في اليوم التالي؛ عاد الجميع وهم يتضاحكون إلا منينة فقد غلّفتها أحزان المظلوم التي صاحبتها جلّ حياتها، والتي ما زالت تعكّر حياتي بعدها بضجيجٍ متواصل.

في الصباح أحسست بالبرد يحاصر الرغبة العارمة في تتبّع مسار أمي فلم أستطع المواصلة، فقد وجدت نفسي متكوّماً أرتعد بشدّة تحت لحافي وأشعر بحمّى مباغتة، ثم لفحتني موجة ريح باردة فاستغربت أنني في عطشي لرؤية منينة نسيت النافذة مفتوحة، فوقفت وأغلقتها وهرعت إلى الحمام وتمدّدت في الماء الساخن وأنا أفكر في قسوة الأعراب وتناقضهم.

أخذت على الأعراب أنهم لا يغفرون لمنينة الزواج بفرنسي ينافقونه ويخافونه كما تخاف الفئران القطط، واكتشفت أنهم، رغم كل شيء، يعتبرون أنفسهم عرقاً مختاراً ونقياً وأن الآخرين مجرد كائنات حيوانية ناقصة، واستغربت ذلك وما سبّبه من معاناة لها ولي لاحقاً.

خرجت نحو برك اتانديكسيل، وتمشّيت في شارع الجنرال ديغول، وجلست في مقهى دافئ على حافة ساحة الفلاجيه يدعى «باتيو الصيف»، وشرعت أفطر وأحمد الله وأستذكر وجه أمي يوم عودتها المنتصرة كيوسف الصدّيق إلى قلعة تامشكط.

هاتفت آندريه واتفقنا على الالتقاء في نهاية الدوام عند ساحة لويز غير بعيد من عيادة الدكتور برنارد. كانت أمامي ساعات طويلة من الانتظار فصعدت مشياً إلى بورت دنامير ودخلت مكتبة ليبريس في وسط المول التجاري المسمى «توازون دور» واقتنيت منها كتاب **آلهة ما بعد الحداثة** لكاتبه الظريف الذي وعدته بقراءته أكثر من مرة، وجلست في مقهى النمرود أقرأ وأنتظر تلك الجميلة التي تتمنّع يقظةً وتقبل مناماً.

جاءت آندريه لكنها لم تقبل الجلوس وقالت في مرحٍ طفولي صاخب:

– تعالَ معي، سأعرّفك على أهلي ونتعشى معهم في واترلو، وستكون فرصة طيبة للتعارف. لقد تحدثت عنك كثيراً لهما وهما يتوقان لمعرفتك.

لم أتردد في قبول الدعوة لأن الأمر يحمل في بواطنه اعترافاً ضمنياً بوجودي في حياتها لدرجة جعلت أهلها يودّون التعرف على الوافد الجديد في حياة كريمتهم المبجلة.

قادت سيارتها بهدوء على بولفار لويز، وقبل نهايته بأمتار قليلة انعطفت نحو اليمين وسلكت شوسيه واترلو، وبعد قرابة ربع ساعة وصلنا مرجاً أخضر كبيراً وقد انتصب في مكانٍ منه هرم من العشب الأخضر يقف على سدته أسدٌ ضخم، وقالت في جذل:

– هل أحسست بالمكان... هل أحسست بشيء فيه؟

– لا، لكنني أخمّن أنه المكان الحزين الذي شهد نهاية ملك نابليون، وربما اعتقل فيه سنة 1815.

– صحيح، لقد اعتقل هنا وقيّد ونصب مكانه هذا الهرم للتعبير عن هول اللحظة... كثيرون ممّن تعرضوا لتجارب تشبه تجربتك حين يزورون هذا المكان ينزعجون، وفيهم من تمكّن من رؤية مشاهد فظيعة من المعركة!

– ربما لأنهم يحملون أحداثها في تجاويف الذاكرة. ذاكرتي ليس فيها شيء عن واترلو... واترلو (تلفّظت كلمة واترلو مكررة كما في أغنية فرقة «آبا»، لكنها لم تنتبه إلى ذلك، لعلها لا تعرف الفرقة ولا الأغنية).

صعدنا السلم ووقفنا في سدة الهرم، وكانت ريح القمة تعبث بشعرها الأشقر البهيج وبدت جميلة وجذابة أكثر من أي وقت مضى، لكنها تملّصت ونزلنا السلم تباعاً وعدنا إلى السيارة وتوجهنا مسرعين إلى بيتهم في واترلو.

وصلنا إلى قصر متوسط الحجم في حدود السادسة مساءً، وكان قصراً بهياً وعتيداً رغم حجمه، وكتب على بوابته «قصر البارون دو جوب» (بالجيم المصرية)، ودخلنا من باب المبنى، وكان في قاعة الاستقبال رجل سبعيني فضي الشعر وقف لاحتضاننا، وحين اقتربت منه أحسست بمهابته ولاحظت رسماً عجيباً على خاتم ضخم في يده، وفي لحظات التحقت بنا زوجته، وكانت كثيرة التجاعيد ومفلجة الأسنان كابنتها، وغمروني جميعاً بعطفهم.

البارون شارل د جوب أرستقراطي مفطور على الكياسة ويتحدث إلى الجميع بتفخيم وبضمير الجمع، وقد استلطفت البعد المسرحي في حديثه، وكانت زوجته الجميلة، رغم التجاعيد وعدوان السنين، تجاريه في خيلائه وزيفه، ووجدت نفسي معهم وقد أصبحت رهينة لجو شكسبيري غريب، ورغم ولهي بالماضي عموماً فقد كنت حذراً ومتحفظاً في جلّ المجالسة.

تعشينا سوياً، وكانت مائدتهم رائعة ودسمة، واستغرب البارون تجنّبي شرب النبيذ المعتق الذي يفتخر بتقديمه، ولاحظت أن الرسم الموجود على زقّ النبيذ هو نفس الرسم الموجود على خاتمه، ثم ذهلت من وجوده على الصحون وعلى كل شيء حيث كان الرسم محفوراً في الملاعق وعلى حافة السكاكين ومنقوشاً على زجاج الكؤوس!

فكرت في أن أسأله عن معنى الرسم لكنني لم أجرؤ مخافة أن يكون في ذلك تجاسرٌ أو جهلٌ فاضح.

تحدّث البارون عن معرفته بإفريقيا وعمله بالكونغو طويلاً، وعبّر عن تشاؤمه بخصوص مصير تلك البقعة الساحرة. وراحت زوجته تستذكر كيف خرجوا من هناك مخافة القتل، وسردت تفاصيل قليلة ممّا تعرضوا له من بلوى هناك.

جال بخاطري أن أتحدث عن تجربة أبي باتريك في الحرب العالمية، وقد أصغى إلي البارون بهدوءٍ واهتمام ثم وقف وقال: «لقد قرأت عنه كثيراً... أنتم ابنٌ لرجلٍ فاخر!»، وهزّت زوجته رأسها علامة الرضا والموافقة.

في حدود التاسعة خرجنا من قصر البارون د جوب، وقد أيقظ اللقاء العائلي فيّ شوقاً عارماً إلى عائلتي الغائبة في تجاويف الذاكرة، ورحت أتعجّل الوصول إلى بيتي وإلى الحبة الساحرة التي ستمكّنني من رؤية أمي. لكنّ آندريه لم تكن متعجلة لتركي، فراحت تقود سيارتها في وجهة لا أعرفها من غابات البرابانت، ثم وصلت إلى الخط السريع وتوجهت نحو مدينة نامير، وبعد برهة توقفت أمام مبنى ضخم وقالت: سنلعب قليلاً في هذا الكازينو!

لم أكن أحب القمار لأنه دمّر أصدقاء كثراً لي وشتّت شملهم، وفي المرات النادرة التي لعبت فيها البوكر كنت أخسر دائماً، ولم يسبق أن دلفت داخل قاعة كازينو قط. لقد كنت أتجنّب هذا النوع من المحلات الموبوءة بقوة، لكن هذه الشيطانة جعلتني أدخل وراءها مرغماً، ووجدتنا في قاعة ملكية فخيمة ورائعة الإنارة حيث تدلت نجفات ضخمة على المكان العامر بالمترفين والأثرياء، وكانت مضيفات جميلات يدرن على الجمع بأنواع الأشربة والمكسّرات، وحين سألت إحداهن عن ثمن الشراب ابتسمت آندريه وقالت: الشراب مجاني هنا.

اندفعت آندريه تلعب على طاولة الروليت التي تحلّق عليها بعض الجنتلمانات، وأخذت تضع بين الفينة والأخرى قطعها على أرقام ما ثم سرعان ما تدور الحلقة الذهبية وتتوقف عند رقم ما، وفي المرة الثالثة تكدّس عندها عدد كبير من القطع، ودعتني لوضع قطع معها فقلت لها إنني لا أعرف كيف ألعب وابتعدت، وراحت تضع قطعها في خانات عديدة وهي تكتب أشياء في ورقة تدسّها في جيب سترتها بين الحين والآخر.

في قرابة الساعة خسرت كل قطعها فعرضت عليها تعويضها بأخرى فقالت:

– لا، لقد تأخر الوقت. تعال، وسنرقص قليلاً في واترلو.

عدنا عند منتصف الليل إلى واترلو، غير بعيد عن المرج العامر بالحزن واليأس، ودخلنا نادياً ليلياً جلّ زواره في سنّ ناضجة وأمضينا فيه وقتاً ممتعاً، وفي حدود الثالثة صباحاً أوصلتني إلى بيتي في شارع المونستير، ولم أعرض عليها النزول معي فقد كنت متلهفاً للحبّة السحرية التي شربت عليها من الماء قنينة كاملة وأسرعت الخطى في شوقٍ وحنينٍ وهيام إلى سريري وحضن أمي.

رأيت الشيخ الرحموني يلبس ملاءةً بيضاء، ثم تبين لي أنه محرم، ورأيت خلفه ولد مختور ورأيت أمي. لقد كانوا في جمع يردد : لبيك اللهم لبيك... لبيك اللهم لبيك.

لكن ولد مختور لم يكن جدياً كما كان ولد الرحموني الذي يشبه في هزاله وضعفه المهاتما غاندي، وسمعت الأول يقول للثاني وهما في زحام الطواف:

– يا شيخنا، أنا أعرف الآن لماذا عمرو رضي الله عنه كتب شعراً في الحج!

– عمرو قال شعراً؟

– نعم عمرو تغزل في الحاجات الجميلات كما أريد أن أفعل الآن!

– عمرو! من عمرو؟

– عمرو بن أبي ربيعة.

صاح الشيخ الرحموني وثار ورفع صوته بالتكبير وقال:

– لا رفث ولا فسوق ولا جدال.

فوجم ولد مختور وراح يكرّر: لبيك اللهم لبيك...

ثم لمحتهم على صعيد عرفة، يبتسمون ويتضاحكون، ويقول ولد مختور: يا منينة، ذنوبك خلاص سقطت. ولكن ما ذنب ذنوبي؟

وزجره الشيخ الرحموني مرة أخرى.

ثم لفّني ظلامٌ دامس للحظة طويلة وتناهى إلي صوت منينة تقرأ «الرسول صلى الله عليه وسلم سلام مختار الأعيور وما حفّ به ذريته من تكريم» ثم قالت له والدموع تغالبها:

– أبي يقول إنه لم يسلب مال من احتمى بك يا رسول الله، فاشفع له يا شفيع المذنبين!

ثم سمعت صوتاً أجشّ لا أعرفه يزجر أمي ويقول: «تقدمي يا حاجة سيري» ثم أردف بنبرة تهديد: «يا شنقيطية التوسل حرام وإشراك. انصرفي وإلا سنعزرك... التوسل معصية يا حاجة!».

ثم، ودون مقدمات، رأيت أمي تجلس عند رأس الشيخ الرحموني وتبكي، وبجانبها ولد مختور وقد اعتلت وجهه نذر الخوف وهو يضرب كفّاً بكفّ ويقول:

– توفيّ شيخنا وتركنا هكذا. لقد كان يعرف ما سيقع له، لقد خدعنا، أتى بنا إلى هنا وذهب إلى الرسول...

ثم تناهى إلى سمعي صوت رجلٍ آخر لم أعرفه لكن لهجته تشبه لهجة أهل مصر يقول لهم: «يا بخته الراجل ده حيدفن في البقيع الطاهر والله الراجل شنقوطي سعيد».

ثم رأيت أمي في الطائرة وهي تلبس السواد وبجانبها ولد مختور وقد أسندت رأسها على منكبه بحنوّ كما كان يفعل هو بمنكب سمير ويتحدثان عن الفقيد وكيف دفعهما للمجيء إلى هنا، وقالت:

– لو رزقت ولداً ذكراً لأطلقت عليه اسم هذا الولي المكمل أحمد ولد الرحموني!

– لو تركت النصراني لرُزقت بولدٍ ذكر، بل بتوأم، ذكر وبنت. اتركيه، أنت غنية وفرنسا ستنتهي أيامها قريبا. تعالي وتزوجي بي.

– أتزوج بك أنت...أنت والدي ومن لي غيرك؟

– لو غرست فيك ولداً سيكون شاعراً مفلقاً وسيكون له شأن عظيم، لكنكن تردن ثراء المال فقط وشرخ الشباب عندكن عجيب.

ثم طفق ولد مختور يروي من نمير شعره، وكانت أمي تسمعه بسكينة ورأسها مثبتة على منكبه حتى نامت، فمدّ يده إلى كوة الطائرة وأسدل ستارها البلاستيكي وأطفأ النور فوقهما وصمت.

انقطعت عني المشاهدات العجيبة ورحت أحاول استعادتها، فأفلت خيطها مني ووجدتني أتذكر آندريه وليلتها الغريبة ووالدها الفخم وأمها المجعدة الوجه والمفلجة الأسنان، وندمت على تملصي منها على قارعة الطريق.

بتّ أفكّر في أمرها وبما حدث في داخلي من كشوف ربّانية، ونمت على موسيقى حالمة تفوح بعطر الرياحين، وانسبتُ بهدوء إلى ظلمة النوم البشري العادي وحيداً، وأسلمته مقاليد أمري كلها ما ظهر منها وما بطن.

خرجت من مترو الأنفاق في ساحة دوبروكير في قلب المدينة فلفحتني ريح شهر أبريل، وهي ريح طرية ومنعشة رغم الصيف الباكر لأنها مبللة ما زالت ببقايا من رذاذ الشتاء ومرطبة بشيء من شموس الربيع المتوهج.

تقدّمت نحو الساحة الكبرى «غرانبلاس» ووقفت لدقائق أبحلق في المباني القوطية الجميلة، ومن المعروف في بروكسل أن زيارة الساحة الكبرى في هذه المدينة طقس مشهور يؤدّيه جلّ الناس في خشوع وتواتر.

مقر البلدية المركزية، أو «فندق المدينة» كما يسمونه، أكثر تلك البنايات القديمة جاذبيةً للناس، فكثيراً ما رصدتهم ينظرون إليه بخوفٍ مخلوطٍ بالحنوّ وكأنهم يتوجّسون أن تكون المرة الأخيرة التي يتسنّى لهم فيها إمعان النظر في بلديتهم السامقة، لذلك سجّلت في كل مرة عرجت فيها على المكان أنه كثيراً ما كانت تلوح من عيون المبحلقين الكثر وداعةٌ وشوقٌ غريبان.

ثم شاهدت عدداً كبيراً من العابرين يمررون أيديهم في تبرّك مكشوف على تمثال ذهبي للعذراء قرب البلدية، وتعجبت من خرافية الخواجات وتوسّلهم بالأصنام، واستغربت منظرهم المشدوه أمام بناياتهم القوطية التي يعتبرونها ضاربةً في القدم وليس لها سوى بضعة قرون قليلة، وقلت لنفسي: «ماذا سيقول أهل بغداد والقاهرة ودمشق عن هؤلاء؟ وكيف سيكون منظر البلجيكيين وغيرهم من محدثي النعم العمرانية أمام شواخص وآثار تلك المدن العريقة؟»

تسرّب إلي الملل سريعاً فخرجت من زقاقٍ ضيق انتهى بي إلى مبنى البورصة، ولمحت لافتةً على واجهة مقهى صغير قرب البورصة وقد سجّلت عليها كلمة «غران كافييه»، وتذكرت أنشودة الشاعر جاك بريل التي كُتبت عن بروكسل وتغنّى فيها بجمال البائعة الجميلة التي كانت تجلس في أيامه في هذا المحل الشهير، فدلفت إليه ورحت أبحث عنها، فوجدت أمامي امرأةً غريبة الشكل، إذ كانت هناك امرأة شقراء مكتنزة بين الخمسين والستين، فقلت «ربما تكون هي نفسها صاحبة الشاعر المشهور أو على الأقل تعرفها أو سمعت بالقصيدة»، فتشجّعت واقتربت منها – كانت في وجهها قسمات آسيوية تؤكد أنها من نوع مختلط، وساورني إحساس عابر أنها نفس صاحبة الشاعر الذي أفنى عمره في حب الخلاسيات والمهجّنات. ابتسمت وأنا اتفرس ملامحها عن قرب، وكانت تجثم وراء آلة المحاسبة مطرقةً تراجع الحسابات.

حمحمت قليلا لإشعارها بوجودي فرفعت وجهها شبه منزعجةً فقلت لها في دعابة وغزل:

– سيدتي، هل هي أنت من سمعت جاك بريل يغنّي لها؟

– من؟

– جاك بريل؟

– لا أعرفه! هل لديك فاتورة تريد تسديدها؟

كان وجهها واجماً ومنزعجاً وسلبياً فتركتها وخرجت، وكيف لا أخرج متبرماً من صدود هذه المخلوقة التي تحتل عرشاً لا تستحقه!

جلست في المقهى المنافس وراء مقر البورصة واسمه «فالستاف»، وكان مكتظاً بالشباب المتأنق وجلّهم من البيروقراطيين كما تشي بذلك ربطات أعناقهم وبدلاتهم، وكان الوقت في حدود الواحدة من بعد الظهر أي في فترة الاستراحة في منتصف الدوام، وبسببهم ساورني شعور مؤسف بالضياع، حيث لم أشغل نفسي بأي مهنة جدية طيلة حياتي خلافاً لكل هؤلاء الناس الذين يكدحون عشر ساعات يومياً ليسددوا أقساط قرض مصرفي لشراء شقة سكنية وينتهون بتملكها بعد عشرين سنة.

إنني فعلاً أغبطهم على كفاحهم وانشغالهم الدائم، وكيف لا أغبطهم وبعد لحظات سيخرجون ويعودون إلى مكاتبهم وأبقى أنا هنا وحيداً في هذا المكان الذي سيتحول إلى صحراء قاحلة في أقل من ساعة.

أمر مؤسف حقاً أن تكون غنياً إلى درجة تمنعك من ممارسة الحياة النشطة بقوة وعنف، ومحزن فعلاً أن تعيش جلّ حياتك متقاعداً، حتى ولو كنت مرفّهاً، لأنك متقاعد على كل حال.

لقد جعلتني أمي رحمها الله غنياً، لكنها سلبت مني روح الشباب وعراكه، وربما كان تقاعدي الغريب هو سبب ولهي بالأم المغيّبة وبالبحث المجنون عنها، ورحت أتساءل عن متى سأتحرر منها؟

بدأ الناس يخرجون تباعاً من المكان وأحسست بنذر الوحدة تترصدني فطفقت أهاتف آندريه وألتمس رؤيتها عسى أن أجد فيها من الودّ والسلوان ما يساعد على مواجهة الفراغ الممل والوحدة القادمة، لكن هاتفها كان مغلقا فتركت لها تحياتي في علبة الرسائل الهاتفية الشفوية ثم أرسلت لها رسالة قصيرة مكتوبة.

تعجبت من الناس في أوروبا وكيف حين تريدهم يفرون من وجهك، وحين تتجنبهم يطوقونك بلؤم من كل حدبٍ وصوب. وفي تلك الأثناء لامست يدي بطاقة في قعر جيبي لحظة كنت أعيد الهاتف إلى مكانه فسحبتها فإذا بها اسم رجل لا أذكره يدعى ميشيل فيرافن وقد كتب عليها رقم جواله وليس عليها أي صفة أخرى يمكن أن تساعدني على تذكره لأنها بطاقة شخصية وليست مهنية كما دلّ على ذلك عنوانها الذي يفهم منه أنه عنوان سكني.

هاتفته دون أن أحدّد من سيكون... هاتفته لأنني كنت أحتاج لمحادثة بشر!

لكن ما إن جاء صوته على الخط حتى تذكرته؛ إنه نفس الأصلع المسن صاحب التوتسية الجميلة، فقلت له إنني أريد موعداً معه فحدد لي بعد تردد قصير موعداً في الغد في مكتبه بجامعة لوفان، وكتبت العنوان وودعته وأنا أتعطش لمعرفة حقيقة شكوكه.

قلت لنفسي: هذا الأستاذ الجامعي ربما يبغض كثيراً الشيخ برنارد، فاشتراك المهنة سبب البغضاء البنيوية الأول بين جلّ الناس، وحمدت الله على أنني لم أبغض أحداً قط ولم أشترك معه في أي مهنة، ورجعت في مشاعر معاكسة أترحّم على روح أمي التي جنّبتني الفقر وغلواء الحسد المهني.

في حدود الثالثة وقفت متململاً وخرجت من «الفالستاف» ودلفت متاجر بيع الكتب القديمة في شارع ستالينغراد، وقبل الرابعة هاتفتني آندريه وتواعدنا في نصف ساعة في صالون فندق المتروبول في ساحة دوبروكير.

وبعد فترة من التسكع والجلوس وحيداً التحقت بي آندريه في مكان موعدنا ولاحظت أن الصليب الذي يرقص دوماً فوق نهدها قد انحفرت عليه رسومات تشبه الرسومات المنقوشة على خاتم والدها البارون شارل دو جوب، وهي نفس الرسومات المنقوشة على أوانيه وملاعقه... وخطر لي أن أسأل عن معنى تلك الرسومات فابتسمت نحوها وترفقت متدرجاً في حديثي ثم سألت عرضاً عن مغزى تلك الرسوم، فقالت في تواضع وتصنّع إنها «آرمواري» العائلة، أي ماركة العائلة، فقلت:

– ماركة العائلة! أمر غريب فعلاً!

بددت أندريه حيرتي بسرعة حيث استفاضت في شرح تقاليد بعض العائلات، وأفهمتني أن النبلاء هنا يتشبّثون دوماً ببقايا المجد الغارب، ولم تقبل الاسترسال أكثر لشرح معنى الأقواس والترس وغيرها مما نقش على صليبها الذهبي الراقص دوماً بين نهديها، فتركنا الحديث عن ذلك الموضوع.

قالت لي فى كياسة وحنوّ إن كل المرائي العجيبة التي سجلتها كتابةً عني ونقحتها وحللتها بمعية الشيخ برنارد تفيد بأنني شخص مكبّل بتركة نفسية للمرحومة والدتي، وأنّ حالة التكبيل هذه من الطبيعي أن تعكّر عليّ صفو الحياة وأن لا مناص من معرفة الشيء الذي تريد حضرتها مني القيام به للخروج من هذه الحالة. وقالت إنني إذا استطعت التعرّف على تلك الرغبة فحتماً سأتمكن من التحرر النهائي من أشباح الماضي والإقبال على الحياة بجدية وإيجابية أكثر.

ثم ابتسمت وقالت: هذا هو رأي الدكتور برنارد.

وأضافت: عليك أن تواصل ابتلاع الأقراص والتأمل والانتظار.

في المساء عدت أدراجي مسرع الخطى إلى بيتي بعد أن أمضيت وقتاً ممتعاً وأنا أستمع إلى مفلجة الأسنان وهي تتحدث، وتذكّرت أن منينة رحمها الله كانت بدورها مفلجة الأسنان!

وحين زحفت جيوش النوم لاحظت أن منينة أخذت تقترب مني بقوة وتهمس في أذني بأشياء غير واضحة الكلمات وكأنها كانت تشدو أو تغني.

ثم تبين لي بعد برهة أنني كنت أشاهد حفلةً ما. لقد كانت منينة في القلعة وكان معها باتريك، وكان حزيناً وهو يقول: في لحظات سيُرفع علم موريتانيا ويُنزل علم فرنسا، لقد انتهت الإمبراطورية يا حبيبتي، سيعلنون الاستقلال من المخزن الذي كنت تؤجرينه لشركة لاكومب... من المخزن سيعلنون أن فرنسا الجبارة انتهى زمانها هنا.

ثم شاهدت منينة فرحةً وجذلى وفي كامل زينتها، وكانت تتقدم صحبة زوجها إلى حفلة الاستقلال. لقد تجمّع ساعتها أناس من كل الملل والنحل في هذا الخلاء ليحتفلوا بهذه اللحظة... لحظة الفراق العجيب!

ثم وقف المحامي الشاب والأنيق والعائد للتوّ من باريس، ووقفت قربه عقيلته صاحبة الشعر الكستنائي، ووقف باتريك، وصفق الجميع، حتى الآغاخان شيخ الطائفة الإسماعيلية الذي لا أعرف لماذا وكيف جاء هنا كان هو الآخر يصفق، وأعلن المحامي الشاب ميلاد الجمهورية الإسلامية الموريتانية من منصة صغيرة نصبت في مقدمة المخزن الأبيض الصغير!

رفرف العلم الجديد وطُوي العلم القديم الذي تسلّمه باتريك وعيناه تقطران دمعاً وأسفاً وخنوعاً وقد كان أقرب ولاة فرنسا إلى قلوب الناس وصار آخرهم.

حبّه لأهل موريتانيا جعله يستبسل في الدفاع عنهم في وجه التوسّع المغربي والسنغالي، وقد جاهد مريراً كي يحققوا حلمهم القديم في بناء دولة مركزية في جنبات الصحراء الكبرى، وكانت منينة تلهمه حماسه وترافقه في كل سفر وتشرح لكل الناس أن موريتانيا ليست من المغرب ولا من السنغال.

لكن أن يطوي بيديه علم فرنسا فتلك لحظة محزنة حقاً، وكان في قرارة نفسه يجد أن ديغول الذي لم يخدم العلم الفرنسي أبداً في إفريقيا لا يفهم حقيقة الترابط بين فرنسا وإفريقيا، بل اتهمه بخذلان الأفارقة والتنكّر لهم ولأفضالهم على فرنسا في أيامها الصعبة.

ثم تقطّعت عني المشاهدات، ولم أكن نائماً بالمعني الفيزيولوجي للكلمة فقد كان الأمر جلياً جداً وكان بدني متحفزاً ومتيقظاً وكأنني كنت أشاهد فيلماً في التلفزيون، وسبحان الله... كل الناس يتلقّون الواردات ويشاهدونها مثلي لكنهم لا يتحدثون عمّا أتيح لهم التمتع بمشاهدته، وحين أتحدث يرمونني بالجنون والهلوسة.

المهم والمتّفق عليه أن تحويل نواكشوط إلى عاصمة الدولة الجديدة لم يكن من أسباب السعد والحظوة لعائلتي، فلقد اندثرت قلعة منينة منذ زمنٍ طويل، بل قل صودرت بعد سقوطها وتهالكها، وقد جعلت الدولة الجديدة تلك الربوة التي انغرست فوقها القلعة تخليداً للقاء الحبيبين مكاناً عاماً لفترة قصيرة ثم

شيّدوا فوقها لاحقاً خزان المياه الذي مازال يرفد المدينة... شيّدوه هناك لأن الربوة هي المكان الأعلى في المنطقة.

بعد سنوات من مصرع منينة وضعت الدولة يدها على المخزن الذي أُعلن فيه الاستقلال وعلى كل الأراضي المجاورة له، ربما لأنهم اعتبروها أرضاً مواتاً فأقاموا عليها، دون إذن قانوني مني ودون حجة مقنعة، مباني رئاسة الجمهورية. ومازال المخزن على حاله كما شاهدته أكثر من مرة، وقد أصبح منذ زمنٍ بعيد مخزناً للوثائق والأرشيفات.

الغريب أنني ما زلت أملك صكوك ملكية هذا المكان!

لقد حصلت عليها في وثائق والدتي المودعة في مكتب المحامي الفرنسي العجوز والشامخ كشجرة دوم في قلب مدينة دكار، وقد سلمني كل تلك الوثائق منذ زمنٍ طويل، لكن من سيصدّق أنني أملك صكّ ملكية لرئاسة الجمهورية الإسلامية الموريتانية؟

صكّ ملكية مسجّل في دائرة الترارزة وعليه تواقيع سلطات إفريقيا الغربية!

ليس لي أن أواجه الدولة ولا أقدر على ذلك، لكن هذه الدولة اعتدت على أملاكي الخاصة، فماذا أفعل؟

ثم زاحمني شعور لزج وغامر بأن تقصيري في استعادة ممتلكات أمي هو سبب إزعاجها المتواصل لي ولعله وحده ما دفع روحها المعذبة إلى مقارعتي وملاحقتي، وهذا لب محنتي ربما، واعتزمت أن أتباحث في الأمر مع الدكتور برنارد في أول لقاء.

قلت لنفسي: «إذا وافقني فسأذهب إلى هناك وأطالب بحقوقي في رئاستهم، وإذا رفض فسأترك الموضوع» وعلى هذا استقر تفكيري، ثم رحت اذرع عوالم الظلام وأروم النوم والراحة، ونمت نوماً طويلاً لكنه نوم أرضي تافه بلا طعم وبلا رائحة.

في اليوم التالي استيقظت متأخراً بل ومتثاقلاً وتذكرت موعدي في لوفان، تلك البلدة الوادعة والنائمة منذ قرون طويلة من مجاهدة القساوسة والفلاسفة في إقليم البرابانت، فوقفت وشرعت أحضّر نفسي للسفر.

ذهبت إلى محطة القطارات الريفية في قلب المدينة، وهي محطة الملك ليوبولد، ومن هناك ركبت قطاراً صغيراً توقّف في كل قرية، وحين وصلت تلك البلدة المسماة «لوفان» وجدتني أمام كنيسة بيضاء ضخمة وفخيمة وقد رشحت من شرفاتها أمجاد قرون متواصلة من كدّ ونكد أولئك العمال العظام الذين بنوا هذا الصرح العظيم، فشردت للحظة طويلة أمعن النظر في الزوايا والقباب.

أمام الكاتدرائية استوقفت أحد المارة وسألته عن الدكتور فيرافن فابتسم وقال: فيرافن في لوفان؟ ووجدت جوابه غريباً شيئاً ما لأنني لم أعرف بعد بوجود أي تناقض بين الاسمين، ولتجنّب خوض غمار جدلٍ لا أعرف خفاياه ناولت العابر الورقة التي كتبت عليها عنوان الدكتور، فدلّني على المكان.

كان مكتب الدكتور فيرافن في الطابق الأول من عمارة صغيرة مطلة على الجادة الكبرى التي تتوسط البلدة.

وجدت الدكتور الأصلع وحيداً في مكتبه العامر بالكتب والملفات، وكان منظره بينها قاسياً وحاداً. وجلست على الكرسي الذي يواجهه.

تململ قليلاً وفرك عينيه وقال بفوريةٍ صادمة:

– منذ متى وأنت تقابل الخبيث برنارد؟

فقلت: منذ زمنٍ طويل... ثم شرحت له كل ما حصل بيني والدكتور برنارد بتفصيلٍ مملّ، وانتهيت بأن عبّرت له عن عرفاني وامتناني لبرنارد، فقد أتاح لي في نهاية الأمر ملاقاة أمي!

ابتسم وقال:

– المشكل يا سيدي ليس في لقاء أمك، إذا كنت تصدّق فعلاً أنك تتواصل معها. المشكل ليس في نظريات الصوم والاستذكار. المشكل في الإدمان، نعم في الإدمان، لذلك فأنا أخشى أن تكون الحقن التي يعطيك إياها هذا المجرم وربما الأقراص مجرد كميات مركّزة من الكوكا.

فقلت: تقصد كوكا كولا؟

– لا، الكوكا نبتة في أميركا، وهي التي يُستحلب منها مسحوق الكوكايين الخطر والمدمر!

ثم ابتسم وعدّل من جلسته وأضاف:

– أظن أن برنارد هذا من أتباع سيجموند فرويد في مرحلته الكوكايينة البشعة.

وبعد لحظة صمت اختبر فيها وقوع الخبر عليّ أخذ جليسي يسترسل في وصف سيجموند فرويد وغرامه بالكوكايين وغيره ممن اعتبروا ان هناك شحنة روحية ما في هذه النبتة الخطيرة، وخلص جازماً إلى أنّ جلّ مستخدمي الكوكا في الطبّ اعترفوا في نهاية الأمر أنهم كانوا على خطأ، وذلك سبب تحريم الدول تباعاً لهذا الوباء الكاسح، لكن وللأسف هناك دوماً من يريد الصيد في المياه العكرة؛ هناك دوماً من يصرّ على آراء مريضة وآثمة.

وتصنّع السماحة فخفتت حدته وأخذ صوته تلك النبرة الأخوية المفتعلة وقال:

– لو تعاونت معي فسنستطيع فحص الأدوية التي يقدّمها لك هذا المجرم وسنستطيع أن نوقفه عند حدّه لحماية النوع البشري منه. عليك أن تفكر في الآخرين قليلاً!

وابتلع ريقه واستطرد يقول:

– صحيح أن الكوكايين يوقظ الذهن وقد يساعد على التذكر لكنه دوّامة خطيرة جداً، وأنا لا أستبعد أنك وقعت في فخ عصابة إجرامية تتوشّح بوشاح علمي، وهذا ما يجعلني أطلب منك التعاون معي ضدهم.

وعاد الدكتور فيرافن يسترسل, كمن يريد مجالاً إضافياً للمناورة بعد أن كشف جلّ أوراقه, في وصف علاقة فرويد بالكوكايين وخلص لحكم جزافي يقول إن كتاب **تفسير الأحلام** وغيره من الأفكار والنظريات الفرويدية مجرد هلوسات ذهنية لطبيب فاشل خلق في لحظة غادرة وهو بين الخدر والجنون خرافةً مشهورة تدعى التحليل النفسي.

حين قلت له ببرود إنني رأيت فعلاً وجه أمي وأنني أستطيع أن أتمتع باليقين العلمي حول صحة ودقة مشاهداتي لها، صاح في وجهي وأزبد وأرعد، فوقفت لأتجنّب انفلات أعصابي حيث صار من الممكن أن يتحول الخصام شجاراً، ومددت يدي له مودعاً فصافحني ببرودٍ زاجر وتعابير القرف والتوتر تكسو محيّاه وكل صلعته.

خرجت ولم يقف لوداعي وتشييعي إلى الباب.

لقد تركته منزعجاً ولم أعطه بطبيعة الحال أي وعد بالكيد معه ضد شيخنا برنارد، لكنّ شكوكاً ما تسرّبت إلي بل عصفت بي أكثر من ذي قبل، لذلك يمكن القول دون مبالغة إنني عدت أدراجي حزيناً ومكسور الخاطر.

في رحلة العودة كنت أشتمه في نفسي حيناً وأقسم حيناً أنه رجلٌ مجنون وحسود وبارد المشاعر. فغباؤه منعه من فهمي ومن ملامسة مشاعري ومن إقناعي بصحة نظريته، فهو يتجاهل بفظاظة أنه حتى لو كان الكوكايين – الذي يزعم أنه السبب – يستطيع منحي لحظة سعادة قصوى كمشاهدة منينة فإنني أجرؤ أن أقول وعلى رؤوس الأشهاد يا أهلاً بالكوكايين ويا مرحباً!

الدكتور فيرافن ترك عندي انطباعاً جارحاً بأنه رجلٌ ساذج لا يعرف معنى اللوعة ولم يخفق قلبه بالحب قط، ولعل من رأى كيف يغدق على حسناء التوتسي، صاحبة الركب المدورة والجميلة، سيعرف انه ممن يظنون أن بمقدورهم شراء العواطف والأحاسيس.

نوع فيرافن هذا لايستطيع إقناعي بأي أمر وهو لم يسمع قط بقصة العاشق الصحراوي الشهير الذي أمضي سنينَ عددا يتبع مضارب معشوقته وينزل أينما نزلت ويرتحل أينما ارتحلت بحثاً عن نظرة منها هنا وعن كلمة لها هناك، وحين أصابها داء الجدري الفتّاك في تلك الأيام القاسية بصحراء القحط والبوار، وتخلّص منها ذووها بقسوة وتجنباً للعدوى وتطيراً من المصاب، وتركوها مقيدةً خلفهم بين أطلال مضاربهم عرضةً لافتراس الوحوش وربما قرباناً لنسور الفلاة، واصل العاشق الذي أعماه الحب هيامه بل اغتنمها فرصةً سانحة للوصال، ففك وثاقها وضمّها إليه وراح يقبّلها بحرارة وهو يشكر في عرفان ورقة داء الجدري... ويتحداه في نفس الوقت!

كنت أفكر في كل ذلك وأبرر لنفسي ما أريد، ففي أسوأ الحالات سأكون مثل شاعر الجدري الذي يتوق لمحاكاته جلّ فتيان بلادي البعيدة، لذلك كنت، ومازلت، وسأبقى ألعن الرجل السخيف. لكنني أيضاً، ورغم كل ذلك، أخذت أميل لمعاتبة صاحبي وشيخي برنارد وأتساءل عمَّ سيضيره لو قال لي الحقيقة، وعلى كل حال لا بدّ من أن يصارحني فأنا لا أحب الكذب والخديعة.

فور عودتي إلى البيت شرعت أفحص أوراقي، وكان من بين تلك الأوراق شهادات مكتوبة من علماء وأشخاص محترمين وكلها توثّق ملكيتي للأرض التي يوجد عليها القصر الجمهوري وللربوة التي يوجد عليها خزان المياه بنواكشوط ولكل ما بينهما. وشردت للحظة أقدّر قيمة الأرض وأستشرف مدى الضجة التي ستثيرها مطالبتي بممتلكاتي الشخصية هناك، وبسرعة غريبة تذكّرت أتعاب المحامين وما سيكلّفه العراك من مبالغ مالية كبيرة، ثم قمت بعصبية وأعدت الملف إلى الدرج ونزلت من شقتي مسرعاً وتوجهت إلى وكالة السفريات لأحجز مكاناً في الطائرة المتوجهة إلى نواكشوط عبر باريس.

حجزت مكانين: واحد لي وواحد للدكتورة آندريه!

في بداية المساء وجدتها تنتظرني في دوبريكير، وكانت أكثر عنفواناً وتدفقاً، وتذكرتها وهي تتلذذ برؤية جسدها الشهي والطري في المرآة بغرفة المداومة حين خرجت من جسدي الأرضي أول مرة.

جلست آندريه قرب المدفأة ووضعت معطفها الخفيف على الكرسي المجاور، وقد تدلت خصلة من شعرها الأشقر على جبهتها، فعانقتها وطبعت قبلةً حرّى على شفتيها وزفرت من حرقتي شيئاً على جيدها ثم جلست قبالتها، فوضعت يدها في راحتي في تشجيع وحبّ، وتمنيت أن أكون رساماً أو نحّاتاً لتخليد جلستها الواثقة، فقد كانت تفيض بالأنوثة وتعتمل بمشاعر الزهو والخيلاء وقد أخذت تتحرر تدريجياً معي

من العوائق المهنية، وأحسست أنها هي صاحبتي وليس غيرها من أريد... نعم، أحسست بوضوح وجلاء بقوة مشاعري نحوها.

قلت لها إنني أدعوها للسفر والاستقرار معي في مسقط رأسي وترك بروكسل مؤقتاً، وأخبرتها بأنني رتّبت كل شيء يتعلق بالسفر وأنّ عليها أن تقرّر وبسرعة لأنني أريدها أن تتعرف على حقيقتي هناك.

أحسست بها حائرةً وقد غمرها حبي وأفرحها تصريحي رغم ما فيه من فجائية وعفوية، فقالت:

– أنت تستحق أن أتبعك أينما ذهبت، لكن علينا أن نحادث الدكتور برنارد في الأمر إذ ليس من الوارد ولا من المقبول أن نتركه دون وداع.

فقلت:

– طبعاً لن نتركه دون وداع، لكن هل يجب أن أطلب يدك من الدكتور برنارد؟

– لا، لم تفهم قصدي، أنا أريد أن أنبهك أنك تحت العلاج ونحن في نهاية المشوار مع الدكتور، وإذا انتهى، ومن المحتمل أن تنتهي قصتك معه في الغد، فلا مانع لدي من السفر معك إلى الصحراء أو حتى إلى سيبيريا إن شئت، فأنا أصبحت أحبك، ربما أكثر مما تتصور.

وأرسلت يدها تداعب وجنتي فطربت أيّما طرب، ثم تذكرت ما جرى بيني وبين الدكتور فيرافن فلخّصت لها ما قال لي فلم تهتز ولم تذعر وقالت:

– ربما بدافع الحسد قال ما قال، لكنك بخير، وكل الأدوية التي تعرضت لها مجرد محفزات للذاكرة ومنبهات قوية وليس فيها أي مادة تخلق الإدمان، وعلى كل حال اليوم هو اليوم الأخير، وغداً تحدث عن أي شكوك لديك إلى البرفيسور برنارد، ووحده برنارد من يعرف التركيبة الكيميائية لأقراصه وحقنه.

خرجنا من المقهى بعد الغروب، وراحت تقترب مني ونحن نتمشى، وأحسست بجسمها الدافئ يلهبني بحمم من الشهوة، واقتنعت، بالفعل لا بالمجاز، أنني تعشقت طبيبتي وأنها هي شريكة ما تبقّى من العمر، فوضعت يدي على منكبها وقلت:

– آندريه، هل تعرفين أنني أريد أن يكون عندي أبناء ككل الناس.

ورحنا نتحدث عن كيف سيكونون، لقد كانت تريد بنتاً وكنت مثلها أريد أن أنجب بنتاً لتحمل اسم منينة، واتفقنا على الاسم دون كبير خلاف، وفي لحظة من الاشتباك الذهني العاصف أخذنا نتبادل القبلات في الشارع، وتلك عادة مقيتة كثيراً ما كرهتها لكن هل هناك من يستطيع منع نفسه من تقبيل هذه الحسناء.

في ساعة متأخرة أوصلتني أندريه إلى بيتي وأمضت معي قرابة الساعة، وحين غادرت تمددت على الأريكة ووضعت القرص الأخير أمامي وكذلك زجاجة المياه المعدنية، وتذكرت ما قال لي فيرافن

واكتشفت أن هذا القرص هو الدليل الجنائي الوحيد ضد الدكتور برنارد، فلو ازدردته الآن، كما هو مقرر، لن يكون بمقدوري، إذا غيّرت وجهة نظري لاحقاً، أن أثبت أن برنارد وجوقته قد تلاعبوا بي. ثم ساورتني شكوك عابرة حول آندريه ومشاعرها المتقدة والمتفاحشة أخيراً، وتوجّست أن دفعي لابتلاع الدليل الجنائي المحتمل لم يكن بعيداً من تشجيعها لي على احتضانها والهيام بها، لكنني تذكرت شاعر الجدري وشرعت أستذكر مفلجة الأسنان وشيخها الواثق وما مضى من مشاهدات وتجارب، واضطربت كثيراً لساعات طويلة والقرص اليتيم أمامي وزجاجة المياه المعدنية تحثني بخبثٍ صامت على أن أكمل الوصفة.

كنت أهزّ العلبة بين الفينة والأخرى فيتحرك القرص لكن ما إن أقترب من فتحها حتى أسمع صوت فيرافن، وما إن أبتعد حتى أرى أندريه، وأمضيت في ذلك الصراع قرابة الساعة، وحين أخذ النعاس يلعب بي أحسست بطيف منينة يلج المكان، ثم سمعتها تتحدث عن نواكشوط وتقول إن الشيخ ولد الرحموني رحمه الله وضع في قلعتها من الأوفاق والأسرار ما جذب الناس من كل حدبٍ وصوب للتبضع من مخازنها. لكن الأمر تخطى حدود المألوف بعد وفاة دفين البقيع الطاهر وبعد أن نقلت إليها عاصمة الدولة الجديدة وخرج الأمر عن السيطرة!

وقلت موجهاً كلامي لطيفها: أمي، هل تعرفين أنها صارت مدينة مليونية؟

لكنها لم تتجاوب معي، وأحسست برغبة عامرة في الدخول معها في حديث يكمل القطع الباقية من الخريطة الضائعة، فمددت يدي إلى العلبة وفتحتها وأخذت القرص الأخير وازدردته بجرعة ماء وحاولت أن أتحدث معها لكنها تمنّعت ولم أرَ أي شيء سوى الظلام... الظلام الكامل والكاتم والمطبق.

بعد فترة من الظلام الدامس رأيت على بعد نقطة ضوء فاندفعت نحوها فتمثّل لي أنني أمام سلم صغير فصعدته، وكان سلماً لولبياً من خشب أبنوسي أسود، وكنت كلما صعدت للأعلى درجةً كانت تزداد كمية الضوء نقاوةً، وعلى سدّة السلم توقفت ثم جلست القرفصاء، وسرعان ما رأيت تحتي أمي وهي تلبس ملحفة النيلة وتضع تاج العروس وبجانبها ولد خيبوزي على اليمين وباتريك على الشمال ويتحدثون كأصدقاء، ثم وقف باتريك وقال لخيبوزي: اهتم بحبيبتي، فنحن نريد منك غلاماً وبسرعة يا هذا؟

ثم رأيت ولد خيبوزي ومنينة يلعبان ويتبادلان الحب ومن فوقهما كان عمود من نور يتنزل عليهما ويجمعهما في مكان ما من الجذعين، واستنتجت أنها لحظة تكون ونشوء، وطربت كثيراً لرؤية لقطة نورانية رائعة تنزلت فيها تلك العلقة الغريبة التي تشاهد الآن وبمتعة استثنائية لحظة تشكلها الفريدة وتحولها إلى مضغة!

تسمّرت في مكاني على سدّة السلّم كي لا أزعج المنهمكين في صناعة الحدث الخلاق، ثم عدت ببصري أدراجه بعد برهة لرؤية المشهد التحتي لكنني رأيت منينة ومعها باتريك وقد تضخمت كرشها

وكانا في عيادة أو مستوصف ما حيث سرعان ما دخل عليهما طبيب أسود البشرة يشبه في سحنته زنج السنغال.

ثم أحسست بدفقٍ عجيبٍ من المرائي حيث أخذت أتنقل بين الأمكنة والأزمنة بيسرٍ عجيب وغير مسبوق، وربما غير مفهوم، وليس مهماً عندي أن يفهم الناس كل الأمر لأنه عويص على السذج والأغيار؛ فمن سيصدّق أنني تمكنت من استعادة النظر والعودة إلى بطن أمي ورضع إصبعي في فمي وأنا في داخل رحمها والتمتع برؤية نفسي وأنا بعد في حالة الجنين؟

وتواصلت المشاهدات واكتشفت أن والدي ولد خيبوزي كان بالنسبة لأبي باتريك ولأمي منينة مجرد أجير باع نطفة منه لعائلة أُصيب الأب فيها بالعقم حتى ولو ألبسوا ذلك جميعاً لبوس الشرع الحنيف!

لقد شاهدت كل شيء بما فيه كيف كان يأخذ الأجرة ممتناً وسعيداً في كل مساء.

ثم فهمت لماذا سافر باتريك لمدة معينة متعمّداً في غيبته أن يفسح المجال لتلقيح زوجته، وكيف عاد، وكيف كان ينام في غرفة منفصلة عن أمي الحامل، وكيف حين ولدت اعتبروا الأمر منتهياً وأصبح جلياً لي لماذا ابتعد ولد خيبوزي عن القلعة نهائياً، وكذا تفسير خروجه من المشهد نهائياً.

الأكثر ضراوةً في كل مشاهداتي كان دون أدنى شك لحظة الانفجار الرهيب والمدوي، فقد كانت أمي نائمة تحلم بي وكيف سأكون بعدها: لقد ماتت أمي وهي نائمة... لقد ماتت وهي تفكر بي... لقد ماتت بهدوء رغم هول الانفجار وسرعته.

كان انفجاراً ضخماً جعلني أصرخ كالمجنون فور رؤيته، واستيقظت وما أيقظني إلا الفزع، ووجدتني في الأريكة وحدي وقد بللني العرق واعتمرني صداع قوي لم أعرف له من مثيل.

تمالكت نفسي بعد دقائق طويلة من الارتباك والهوس وكنت ارتجف، وأدركت أنني مازلت حياً فور ملامسة رجلي أرضية المكان، ثم وقفت ورأيت وجهي في المرآة المثبتة على الجدار وذهلت من ذقني المدببة ومن شحوبي ومن غيوم الكدر التي تمطر من محجري عينَيّ وأحسست أن الأمر أتعبني كثيراً.

اكتشفت انني تحملت ما لا يطاق فقد أوصلني الاجتهاد والانكباب على الذكريات الراقدة تحت عتبات تجاويف الدماغ لكل ما كنت أريد الوصول إليه، وغمرني، رغم الإرهاق والتوتر، شعورٌ نادر بالرضا عن النفس، وغلفتني غلالة عجيبة من الزهو وتحقيق المنى، فتوجهت إلى الحمام وشرعت أحلق ذقني وأستحم وأستعيد شيئاً من أناقة البشر العاديين في حيواتهم العادية.

في وقت من ضحى اليوم نفسه استقبلني الدكتور برنارد في مكتبه بعيادة سان جيل، وكان بمعيته مساعده التونسي الدكتور منصف وبطبيعة الحال تحرّك عطر الدكتورة آندريه ونفح على المكان شيئاً من أريجه السعيد.

جلست آندريه على حافة الطاولة قرب الدكتور برنارد وقد وضعت قدامها كراريسها، وجلس برنارد خلف مكتبه، وكنت ومنصف في الكراسي المتقابلة أمام المكتب.

تحدثت عن مشاهداتي البارحة وعن ترددي في استخدام القرص، وعرجت على حديثي مع الدكتور فيرافن، ولم يتحرك شيء في وجه العجوز الإنجليزي البارد وإن اعتلت وجه منصف أمارات انتباه ملحوظ، ثم بعد ربع ساعة من الحديث خلصت إلى فكرة المطالبة بالقصر الجمهوري الموريتاني.

قال برنارد:

– المهم أن التجربة كانت ناجحة وها أنت نفسك بخير وعافية، وعليك أن تطمئن يا صديقي، فأنت لم تتعرض لأي مغالطة ولم يحقن لك أي كوكايين ولا أي سموم البتة... المهم أن تستطيع أن تتحرر من حالة الاستحواذ الخطيرة، وهي حالة عويصة يعجز العلم الحديث عن علاجها ويسخر منها الكثيرون ويعتبرون القائل بوجودها خرافياً ومتخلفاً.

ثم استطرد يقول:

– حالة التكبيل حقيقة علمية ثابتة، وكل شهاداتك أفادتنا كثيراً كحلقة بحث، وأنا شخصياً لست رجل قانون ولا أعرف مدى أهمية الحجج القانونية التي تجعلك تستطيع رفع قضية ضد دولة موريتانيا، لكن يمكنني أن أقول إن الموتى دوماً يسعون لتحقيق أمنياتهم ورغباتهم عبر الأحياء ولا أستبعد أن أمك منزعجة كثيراً من سلب ممتلكاتها وأن استعادتها أمرٌ مفرح لها، لذلك فمثل هذا القرار ربما يكون مفيداً لك نفسيا لكنه يعود لك وحدك، ويعنيك وحدك.

رافقني برنارد إلى الباب وودعني بودّ وطيبة وقال:

– لو كتبت تجربتك معنا سيكون ذلك مثمراً من الناحية العلمية والأدبية، فحاول أن تسرد الأحداث كما رأيتها ساعة حدوثها وليس بأحاسيس وأحكام ما بعد حدوثها.

ووعدته أن أفعل وأن أنشر تجربتي لكل الناس.

أمضينا أسبوعاً كاملاً في تحضير السفر، والتقينا البارون شارل وزوجته مرات عديدة ولم يكونا متحمسين لفكرة سفر كريمتهم إلى تلك البلاد البعيدة لكنهما تقبلا قرارها في نهاية المطاف، وتسوّقنا كثيراً في باريس عشية يوم السفر. لقد تخلت آندريه عن كل شيء من أجلي وكانت فرحة وسعيدة معي، وزاد كل ذلك من ثقتي فيها وفي القادم من الأيام.

أقلعت طائرة «أير فرانس» من مطار رواسي شارل ديغول، وكان جل ركابها من رجال الأعمال ومحدثي النعم: فهذا محمد محمود ابن سائق الوالي وقد أصبح من كبار تجار الأسماك، وذاك مختار الزويكل وقد صار مقاولاً مشهوراً، وغيرهما ممن عرفت في المدارس والشوارع والميادين وقد تدافعوا جميعاً لمصافحتي وملاطفتي لكنهم كانوا جميعاً يبحلقون في فجور واستهتار في آندريه، وكأنهم يستكثرونها عليّ!

في الطائرة كان هناك لفيف كبير من الفرنسيين، وقد عرفت من أحدهم أنهم فوج من مهندسي شركة «توتال» التي تنقّب عن النفط والغاز منذ خمسين سنة بموريتانيا دون أن تكتشف أي شيء في تلك الصحراء الشاسعة، وقد خطر لي ساعتها شعورٌ جارف مفاده أنه لن تكتشف تلك الكنوز ما لم تتنازل لي تلك الدولة عن كامل حقوقي السليبة وتعوضني عن كل الأضرار المادية والنفسية التي ألحقت بي.

لقد كنت أستغرب دوماً، بفطرة البدوي، كيف يعقل أنّ كل الدول العربية التي يوجد فيها بدو وجمال يوجد فيها نفط إلا موريتانيا وحدها، فهناك بدو وجمال لكن لا نفط ولا غاز ولا يحزنون!... وخمّنت أن حرمانهم الطويل من تلك النعم الجليلة مجرد انتقام إلهي ونصرة ربانية لي.

لقد كنت يتيماً وقاصراً، ومال اليتيم كارثة لمن تجاسر عليه كما كان يقول الإمام بداه ولد البصيري في كل جمعة، وقد تجاسروا تباعاً على مالي، لذلك لن يجد الفرنسيون ولا الأمريكان أي شيء ذا قيمة في صحاريهم التي تشبه في مساحتها وعربانها وإبلها جزيرة العرب وكأنها نسخة طبق الأصل عنها!

في الساعة الخامسة نزلنا من الطائرة، وكان المنظر الخارجي عبثياً وحزيناً ويتفطر له القلب، حيث تجمّع عدد كبير من الناس على أرضية المطار الكلسية الباهتة، وكانت تلفّهم سماء مغبار وراحت ريح صائلة تعبث بملابسهم الغريبة، وكانت أجسامهم أقرب ما تكون إلى ذئاب الخلوات، وفيهم من كان يصيح ومنهم من كان يبصق على الأرض ويسعل.

تقدمنا نحو بناء المطار وأحسست بآندريه محشورة وحزينة، وأنهينا معاملات الدخول مع شرطي نحيف ووسخ وضع ختمه على جوازاتنا بتأفّف وقلة ذوق، وحين خرجنا لاستعادة أمتعتنا كان المنظر أكثر سوريالية وجنوناً، حيث تجمّع عدد كبير من الحمالين كما يتجمّع الذباب على الموائد وراحوا يتهارشون

ويتدافعون، فاستأجرت أحدهم واستطاع جمع حقائبنا بعد معركة ضارية مع أقرانه، وخرجنا وركبنا سيارة تاكسي متهالكة، وحين وصلنا فندق نوفوتيل بدأت آندريه تجهش بالبكاء، تماماً كما كانت أمي تبكي على رصيف القطار في سان لويس، فحاولت مواساتها لكن نوبة البكاء كانت أقوى مما كنت أتخيل.

نوبة البكاء التي اعترت آندريه في أول مساء جعلتني أتفهم لماذا جلّ الموريتانيين الذين عاشوا في أوروبا تخلصوا من رفيقاتهن قبل العودة إلى موريتانيا، واستنتجت أن السبب الرئيسي لحالات التفكك العائلي المتكررة هو شعور قوي بالرأفة، فمن الظلم بمكان توريط أوروبية ودفعها للسكن في هذه الظروف الكالحة والبائسة لبلد تزوج بالسلّ وتلبّس بالجرب!

في أول يوم ذهبنا لزيارة بعض المعالم وتمكّنا من مشاهدة سقف مخزن أمي من وراء سور القصر الجمهوري، واستطعنا الوقوف على الربوة التي ترفد المدينة بالماء، وفتح لنا حارس الشركة الوطنية للماء بوابة السور، وربما تصوّر أننا خبراء أجانب أو متعهدون للشركة، وتفقّدنا بقية الدور والدكاكين التي مازلت أملك.

فتحت بصعوبة بالغة مزلاج الباب ودخلنا بيتي في لكصر، وكان مغلقاً منذ عقدٍ من الزمن وأقرب ما يكون إلى بيت أشباح، وقالت أندريه إن ترميمه سيأخذ شهوراً طويلة، واتفقنا على تأجير بيت في أحد الأحياء الراقية خلال فترة الترميم الطويلة.

في المساء أمضينا وقتاً مع بعض الأصدقاء القدماء، ولم أكن حزينا لكن كان علي أن أساعد حبيبتي على التعود على حياتنا الجديدة، لذلك اقترحت أن نسهر على الشاطئ، وذهبنا إلى هناك وتعشينا في مطعم يطل على البحر وكان منظره يخلب الألباب حيث عكست أمواجه ضوء القمر وأدخل المشهد الجميل قليلاً من السلوان على قلوبنا.

في اليوم التالي زرنا الأستاذ عبد الله ولد محمود، وهو من كبار المحامين، وعرضت عليه ما في جعبتي من أدلّة ووثائق واستشرته في موضوع مقاضاة الجمهورية الإسلامية الموريتانية، ففغر فاه كمن لا يصدق ما يسمع ثم انكبّ على الوثائق والشهادات الواحدة تلو الأخرى، وبعد هنيهة قال:

– من الناحية القانونية البحتة ملفك قوي ومتماسك لكن من الناحية الواقعية ليس مجدياً لأن القضاء في هذه البلاد ليس مستقلاً كما يفترض فيه أن يكون.

ثم وقف وتقدم بخطوات ومدّ يده إلى درج في الخزانة الموجودة في الركن وأخذ ملفات منه وعاد إلى مكانه، ثم قال لي:

– انظر، كل هذه الأحكام من الغرفة الإدارية في المحكمة العليا وكلها ضد الدولة وقد كسبها خواص لكنها تنتظر التنفيذ منذ سنوات عديدة، بمعنى أنه حتى ولو كسبت قضيتك أمام القضاء فلا تنتظر ان يتم التنفيذ في الأفق المنظور فهناك قضايا تنتظر التنفيذ منذ ثلاثين سنة وربما أكثر.

وأضاف وقد أخذ صوته نبرة ودية:

– أنا أصارحك وأقول لك الحقيقة، ولو لم تكن صديقي لشجّعتك وتبنيت قضيتك، فالمحامي أياً يكن لا يتجاهل البعد المادي الذي يكسبه من أي توكيل... على كل حال أنت تطلب المستحيل، فأنت تريد قصر الرئاسة بموجب أوراق صفراء قديمة!

كان جلّ حديثنا بالفرنسية وقد استفز آندريه فقالت له:

– يا أستاذ، رئاسة الجمهورية مبنية على أرض مسلوبة، وفي كل دول العالم هناك طرق معروفة لنزع الملكية الخاصة، وهي لم تتبع في هذه الحالة، ومن المعروف أن الأملاك العقارية لا يمكن تملّكها بالتقادم... أليس كذلك؟

فقال:

– نعم هذا صحيح وربما أكثر لكنه كلام نظري. هذا ملف سياسي بامتياز، وبما أن المالك أو المدعي فرنسي الجنسية فذلك يضفي على الأمر برمّته مسحة دولية ستزيده تعقيداً. على كل حال من حقكم الاستعانة بالمساعدة القنصلية لبلادكم، وإن كنت أستغرب أن تقوم سفارة فرنسا بأي مسعى لمساعدتكم، فليس من المألوف أن تطالب دولة ما رئيس دولة أخرى بإخلاء قصر الرئاسة!

– ما العمل إذن؟

– في الحقيقة لا أعرف الفائدة من خوض معركة خاسرة مسبقاً؟

فقلت له:

– سيدي، أنا مطالب بالدفاع عن ممتلكاتي، ولا يخفى على أحد أن الموضوع عاطفي جداً وأنا أتعلق به جداً خصوصاً أنني أعتبر أنّ فيه نوعاً من النزول عند رغبة المرحومة والدتي.

فقال:

– إذا كنت مصراً على هذه المعركة فكن على يقين من أنها معركة سياسية وإعلامية أكثر منها معركة قانونية، لذلك فقد يكون من الأفضل لك في هذه الحالة توكيل محامٍ متخصص في المشاكسة السياسية والقضايا شبه المستحيلة... ثم أطرق قليلاً كمن يفكر وأردف يقول: الأستاذ محمد ولد بوياتو هو صاحب هذا النوع من الملفات الساخنة لأنه يحب الإعلام والمؤتمرات الصحفية والكلام الكبير، وإذا لم يكن لديك مانع سأهاتفه وأحدّد لك موعداً معه؟

فقالت آندريه: هذا معقول، نحن نوافق.

أخذ يضغط على أزرار هاتفه الجوال وفتح بوق المايكروفون كي نتمكن من الاستماع معه إلى المكالمة، وسرعان ما جاء صوت الأستاذ ولد بوياتو على الخط، وبعد تبادل التحية وبعض الملاطفات

تحدث له عن الأمر بفكاهة وقال له إن أمامه أناساً يملكون صكوك ووثائق ملكية لأرض رئاسة الجمهورية ويريدون استعادة أرضهم، وسمعته من بعد وهو يضحك كالطفل ويقهقه كالعربيد ويقول:

– إذا كانت وثائقهم قوية سأكون سعيداً بطرد هذا المخلوق من قصره، أنت تعرف كم أكرهه، وحتى إذا لم أستطع فسأنغص عليه المقام فيه.

ثم أردف في تبختر ورياء يقول لزميله:

– قل لهم إنني أنتظرهم الآن في مكتبي بعمارة المامي، وسأكون ممتناً لهم لدرجة أنني سأدفع لهم أتعاب القضية من جيبي... هذا أحلى خبر سمعته في حياتي، إنها قضية العمر!

وعادت إليه نوبة الضحك والقهقهة، وحين انتهت المكالمة كنت أضحك بقوة وسرت عدوى الضحك إلى آندريه وحتى إلى المحامي الرزين والمتردد.

خرجنا من مكتب الأستاذ عبد الله ولد محمود في شارع الرمال سابقاً – عبد الناصر حالياً – وشيّعنا إلى السيارة ثم شرح لنا كيفية الوصول إلى مكتب زميله الظريف والمقدام، وبعد دقائق توقفنا أمام عمارة المامي المطلة على شارع جون كينيدي، وصعدنا سلماً يقبع تحت سقف قريب يكاد يلامس رؤوسنا، وفي الطابق الأخير وجدنا لافتة تحمل اسم ولد بوياتو فاقتربنا من الباب وكان مفتوحاً فدخلنا ولقينا بعض الناس في قاعة الانتظار، وبعد دقائق جاء رجل خمسيني أبيض الشعر نحيف البنية متوسط القامة بني البشرة وحليق الوجه ومجعد الجبهة، ومبتسم إلى حدود الطرافة، وكان نظيف الملبس دون أناقة مفرطة، واستنتجت من ربطة عنقه الحريرية وبدلته الداكنة ومن ساعتة الرولكس أنه ميسور الحال.

كانت بين أصابعه لفيفة تبغ غير مشتعلة، وفي يديه هواتف جوالة، وكان سريع الحركات وقليل السكنات كمن يفكر في أشياء متعددة ومتناقضة في نفس الوقت.

رحّب بنا بفرنسية مشرقة وأدخلنا مكتبه، وهو عبارة عن قاعة كبيرة متواضعة الأثاث وعلى جنباتها رفوف تحمل كتبا كثيرة وقد تكدست مجلدات من الجريدة الرسمية فوق منضدة مكتبه، وجلس ثلاثتنا حول طاولة دائرية في وسط القاعة.

ابتسم وقال:

– المحامي في أول لقاء يسمع وبعده يتكلم كثيراً. الآن أنا أصغي إليكما، ماذا تريدون بالتحديد والدقة لو سمحتم؟

فقلت له:

– سيدي، أنا لست مهتماً بالسياسة ولا مشكلة شخصية عندي مع من يسكن قصر الرئاسة، بل أحترم شخص الرئيس وأحترم مؤسسات هذه البلاد، لكن عندي معهم مشكلة قانونية ربما حصلت بالصدفة...

ورحت أعيد على مسامعه قصتي وكيف ماتت أمي، وأخبرته بتفاصيل النزاع بين الأب ودولة الوالد، ثم أعطيته الوثائق وراح يعاينها، وفي لحظة ما اقترب من النافذة وفتحها ليتمكن من رؤية كل الأوراق تحت ضوء النهار.

ثم راح يسألني إن كان هناك حكم قضائي يثبت أنني موريتاني الجنسية فأجبته بالنفي، وسأل عن حيثيات النزاع حول شخصي فأعدت على مسامعه كل التفاصيل، وطلب رؤية وثائقي الثبوتية فناولته وثائقي.

أخذ جوازي الفرنسي ووقف للحظة وصوّره على ماكينة صغيرة في ركن مكتبه، ثم صوّر كل الوثائق الموجودة في ملف القضية وعاد إلى مكانه وعدّل من وضعية ربطة عنقه ووضع ساقاً على ساق ثم قال في تؤدة وثقة:

– من يريد سلب أموال مثبتة بكل هذه الوثائق والشهود العدول يجوز وصفه بانه مستبدّ وطاغية.

لاحظت أن آندريه كانت مثلي فرحة ومرتاحة من تصرفات هذا المحامي العفوي الذي يشبه، رغم السن والوقار، الصبية الطائشين في اندفاعهم وغفلتهم وحماستهم، وفي الحقيقة فقد أطربتني ثقته واعتداده بنفسه.

أرسل يده ليعدل ربطة عنقه ثانيةً ثم أدخل يده في جيبه وأخرج ولاّعته وأشعل سيجارته، ثم قدّم إلي علبة السجائر وفتحها في حركة استعراضية واقترح سيجارة أخرى لرفيقتي فاعتذرت له ولم تكن تدخن، ورغم إقلاعي عن التدخين منذ زمنٍ طويل فقد استلطفت مجاراته.

نفث من تبغه وقال بفرنسية أنيقة:

– أنا لا أطالب بأي أتعاب عن القضايا السياسية، وهذه قضية سياسية بامتياز لأنها تلمس عرين الفساد وبؤرة الخزي في الصميم، وكما تعرفون كل ما بني على باطل فهو باطل، لكن في حالة كسب القضية ونجحنا في استعادة العين المغتصبة ستتحول إلى مجرد قضية عقارية عادية وساعتها ستختلف القصة ويصبح من المنطقي والطبيعي أن أتسلّم أتعاباً كبيرة عن عملي.

قالت آندريه:

– في حالة كسب القضية تعني في حالة استعدنا الأرض أم في حالة النطق بحكم لصالحنا؟

فقال:

– أقصد بكسب القضية تنفيذ حكم منطوق لصالحكم أو الحصول على تسوية مرضية بين المدّعي والمدّعى عليه. فقط في هذه الحالات يجب دفع أتعابي، وبكل بساطة ووضوح أنا أطالب بمليون دولار أمريكي كأتعاب تُدفع نقداً وعداً بعد التنفيذ أو التسوية. إذا كنتم توافقون فسأصيغ عقداً يحدد التزامات وحقوق الطرفين... وراح يضحك ويسترسل في ضحكاته كأول مرة.

فقلت له بصوتٍ خفيض: ألا تجد أن المبلغ كبير شيئاً ما؟

فقال: لا ليس كبيراً. نحن سنطالب بمائة مليون دولار كتعويض، ولا أتخيل أن تسوية معقولة ستكون ممكنة دون ربع هذا المبلغ. ثم أنني نتيجة لصعوبة القضية لا أطالب بأي شيء مسبقاً مادامت القضية سياسية. – ثم رفع صوته وقال بنبرةٍ مسرحية ملفتة وهو يشير بيده نحوي: – إن موكلي هذا تعرّض لعملية نصب تاريخية نادرة.

اكتشفت أن صوت الرجل يتغير حسب رغبته، فهو يستطيع تحويله إلى صوتٍ هادر كموج البحر، كما يمكنه أن يجعله سريعاً ومتلاحقاً كفحيح ثعبان، وهو عموماً يوحي بالثقة ولا يريد شيئاً قبل نجاح مهمته، فقلت له: أنا موافق وبطيب خاطر.

قال: عليك أيضاً أن تفهم أنه في هذا النوع من المعارك لا بدّ من دفع بعض المال للصحافة فقد يكون من المهم لنا لاحقاً وضع الرأي العام بجانبنا، وعلى كل حال الصحافة هنا لا تطلب الكثير، المهم أن تكون ودياً ومفيداً لبعض الناس الذين سأرتّب لك مواعيد معهم بين الفينة والأخرى.

ثم أشعل لفيفة تبغ أخرى وقال:

– في المرحلة الأولية عليك أن تكتم القصة، وسأحاول كسب حكم من المحكمة الابتدائية يثبت صدقية الدعوى دون أن أحدّد أن المكان هو رئاسة الجمهورية، وبعد كسب الجولة الأولى سنطالب بالتنفيذ وساعتها سنفتح النار في الإعلام ونقيم الدنيا على رؤوسهم وسيكونون قد أُخذوا على حين غرة!

– هذا معقول، لكن هل من الممكن تمرير الحكم الابتدائي دون إثارة انتباههم؟

– طبعاً، هؤلاء قوم نوّم... وراح يقهقه كطفلٍ مستهتر ويقول عن القضاة : هؤلاء مستواهم العلمي بسيط جداً وكل الوثائق بالفرنسية كما تعلم وهم لا يعرفون من الفرنسية سوى كلمات «بونجور» و«بونسوار»، ويعتبرون جهلها معيباً لذلك لن يطلبوا ترجمة النصوص. ثم سأصور لهم أن المكان المتنازع عليه في لكصر، وأنت مثلاً لا تعرف أن القصر الرئاسي يقع إدارياً في مقاطعة لكصر، فما بالك بهم هم.

وبالفعل لم أكن أعلم أن الموقع يتبع لمقاطعة لكصر.

وقف ولد بوياتو وجلس خلف مكتبه وراح يرمز بكلمات على شاشة الحاسوب ثم نقر زراً فهمهمت الطابعة وخرج منها عقد توكيل مكتمل في ثلاث صفحات وفي ثلاث نسخ متكررة، وناولني قلماً وطلب مني التوقيع فوقعت، ثم أشار لي بالوقوف معه وطلب قهوة لآندرية من الفرّاش الجالس في الردهة أمام مكتبه، ونزلت معه إلى الطابق الأرضي وسجّلنا نسخة من العقد عند زميل له متخصص في توثيق العقود وعدنا أدراجنا، وراح يهاتف المحكمة لبرهة قصيرة، وناولني بطاقته وهو مازال يتحدث في الهاتف، وحين فرغ من المكالمات شيّعنا بأدبٍ رفيع إلى الباب الخارجي للعمارة.

انتهى بنا البحث عن بيت يصلح للسكن بتمضية شهر كامل من العناء واستقرّ بنا المقام في بيت صغير في حي إيلوكا غير بعيد عن السفارة الفرنساوية، وتمكنت آندريه من الحصول على عمل في مستشفى الأمراض العصبية والنفسية وكان راتبها مريحاً ويدفع من خزانة مشروع دعم أوروبي، ووفّر لها عملها الجديد انشغالات كبيرة ساعدت على تبديد وحشتها.

في كل صباح كنت أوصلها إلى مقر عملها في سيارة تويوتا اشتريتها في الأسبوع الأول «بايلوكا»، بعد أن خسرنا مبالغ كبيرة في تأجير سيارة مستهلكة، وبعد توصيلها كنت أذهب إلى مكتب ولد بوياتو وأرافقه في بعض مشاويره، وأحياناً أجلس في مكتب صحيفة أنباء المدينة في نفس العمارة التي يوجد فيها مكتب المحامي.

لقد تعرفت على رئيس تحرير هذه الصحيفة بواسطة المحامي ولم أتحدث معه في موضوعي، وقد استلطفت مكتبه وأدمنت شرب الأتاي معه، وكانت له شلة من العاطلين وجلّهم من الصحافة ويمضون الوقت في الحديث في السياسة وأخبار الناس، وقد تعرفت عن طريقهم على مجريات الأمور في هذه المدينة الغريبة.

اندمجت معهم تدريجياً ولم أجد أي صعوبة كبيرة في ذلك سوى عجزي عن التعريف بنفسي، فقسماتي وتركيبتي البدنية ولهجتي ومخارج حروفي تقول كلها إنني موريتاني قحّ وأصيل مثلهم، لكن حين يتحدثون عن قبائلهم وأيامها أجد حرجاً في مجاراتهم، فليس لي قبيلة ولا أستطيع المفاخرة مثلهم بأي شيء لأنني مقطوع من شجرة. ثم اكتشف أحدهم أنني من المناذير من ناحية الأم فراحوا يقولون كيف حال شيخ المناذير؟ ثم جاء ذات صباح إلى مكتبهم ابن عمي فصحّح شجرة نسبي عندهم فراحوا يتحدثون عن شرف آل خيبوزي ونسبتهم إلى رسول الله، وبطبيعة الحال لم أعلّق على مداعباتهم فتركوا الأمر على مضض.

وفي شهري الثاني انشقّ بعض الصحافيين وقرروا إنشاء جريدة يومية وطلبوا مساعدتي فقبلت شرط أن أقدّم نفس المبلغ الذي يطلبون لصحيفة **أنباء المدينة**، وهكذا تأسست جريدة **أصداء المدينة** واكترت مقراً في الشارع الخلفي في شقة صغيرة، وجعلني الأمر سعيداً أكثر حيث صار بمقدوري أن أمضي أوقاتي بين جريدتين، ثم تمددت علاقاتي الصحفية وتوسعت وكنت أدعو البعض للعشاء ببيتي من وقت لآخر. وفي شهري الثالث أصبحت أعرف كل صحافة نواكشوط المكتوبة والمسموعة والمرئية وكثيراً ما استعان بي بعضهم في تحرير مقالاتهم أو ترجمتها.

صحافة نواكشوط، رغم بؤسها، لا تخلو من سطوة وخطورة، وهي ليست بالضرورة حثالة ولا مجموعة أفاكين، كما يراها البعض، بل هي عصارة نادرة من الحزن والفقر والثورة، وقد لاحظت أن جلّ الساسة وكبار التجار يمدونها بالأخبار والمال ويستعينون بها في معاركهم الطاحنة، وهذه هي حال

الصحافة في كل بلاد الدنيا، وقد عملت على مدّ جسور المودة معهم جميعاً عملاً بنصيحة المحامي وتحضّراً للمعركة القادمة والوشيكة.

في منتصف الشهر الثالث أخبرتني آندريه بأنها حامل، وكان ذلك الخبر سبباً للسعادة، وقد تصادف ذلك مع عطلة شهور أغسطس – سبتمبر حيث تحولت نواكشوط إلى مكان تغمره المياه والبرك وتهيمن عليه جيوش الذباب نهاراً وتحاصره أسراب البعوض ليلاً. وهكذا عدنا أدراجنا إلى بروكسل وأمضينا فيها شهراً كاملاً، وكان البارون في منتهى السعادة، ونزولاً عند رغبته قمنا بتنظيم مراسم زواج في بلدية واترلو وقضينا ما تبقى لنا من وقت في حفلات وبهجة، وكنت أزور الدكتور برنارد بين الفينة والأخرى وكان سعيداً بالتطورات المهمة في مساري ونصحني بالبحث عن عمل للتسلية والتوازن النفسي، وحين أخبرته أنني اكتشفت عالم الصحافة هناك شجّعني على ذلك وقال:

– في الصحافة تسلية وحركية كبيرة، إنها من مصادر القلق وأنت تحتاج لنسبة كبيرة منه لتلوين حياتك.

ثم ابتسم وقال:

– القلق بمثابة البهارات في الطعام، بدونه لا شهية ولا سعادة!

في نهاية شهر سبتمبر عدنا إلى نواكشوط، وقد تمكنت خلال مقامي في أوروبا من ترتيب بعض الأمور العالقة كتأجير شقتي في بروكسل وبيع بعض الأملاك العقارية في باريس وتقوية محفظتي المالية بسندات جديدة وآمنة، وقد استجلبنا في حاويتين كبيرتين جل أمتعتنا الشخصية وتمّ شحنهما من ميناء آنتويرب.

فور عودتنا إلى نواكشوط هاتفت الأستاذ محمد ولد بوياتو وكان سعيداً وضاحكاً كعادته وقال لي إنه غير موجود في نواكشوط، وإنه يمضي هذه الفترة في نواذيبو تجنباً لقضاة نواكشوط وبعوضها، وإنه سيعود في شهر أكتوبر، وأن في جعبته أخباراً سعيدةً جداً. حاولت أن أفهم منه عن مفاد تلك الأخبار لكنه قال «سنتحدث فور عودتي» ثم أبان أنه يخشى الحديث في التلفون!

في منتصف شهر أكتوبر عاد الأستاذ إلى مكتبه، ولاحظت أن سيارته متوقفة أمام العمارة، فذهبت إليه ووجدته وحيداً في مكتبه يدخن فقلت له دون تحية ولا مقدمات:

– هل من جديد في قضيتنا؟

نفث حلقات متتالية من دخان لفيفته في الهواء بهدوء وتلذذ وسكينة وأشار لي بيده إلى ورقة أمامه فمددت يدي لها وقرأت فيها ما يلي:

...

الجمهورية الإسلامية الموريتانية، شرف – إخاء – عدالة

محكمة ولاية نواكشوط الابتدائية

محضر النطق بحكم في جلسة الأربعاء الخامس عشر يونيو 2012

إننا نحن محمد عبد الله ولد الخيرات رئيس المحكمة الابتدائية

وبعد التشاور والمداولة مع السادة المستشارين:

محمد ولد اباه

مختار انيانغ

عبدول جاه

يوسف ولد إبراهيم

وبحضور الأستاذ مختار ولد ديلاه كاتب ضبط المحكمة

وبعد الاطلاع على:

عريضة الأستاذ محمد ولد بوياتو محامي السيد جوزيف بلانشيه المولود في نواكشوط – بيلا في السابع من أغسطس 1961 لأبيه باتريك بلانشيه المولود في باريس في الثامن عشر من أبريل 1912 ولأمه منينة بنت المختار – بلانشيه المولودة في تامشكط في حدود سنة 1920 والقاطن في نواكشوط برقم 22 حي إيلوكا.

وبعد الاطّلاع على صكوك الملكية لمخازن وأراضي المدعوة منينة بلانشية المثبتة في السجّل العقاري لدائرة الترارزة والمحددة في محضر التنازل العام المنشور في الجريدة الرسمية لغرب إفريقيا الفرنسية برسم سنة 1955،

وبعد الاطّلاع على إفادات الشهود والعلماء،

وبعد الاطّلاع على قوانين الجمهورية الإسلامية الموريتانية المنظّمة لحقوق الورثة وعدم سقوطها بالتقادم،

ونظراً لوجود الوثائق التي تثبت الصلة بين الأم والابن، أي بين المدعوة منينة والمدعو جوزيف بلانشيه،

ونظراً لوضوح مذهب سيدنا مالك في هذه الحالة وبعد التثبت من إسلام المالكة والوريث،

ونظراً لاتفاقيات نقل السلطة والصلاحية القانونية من فرنسا إلى موريتانيا في الثامن والعشرين من نوفمبر 1960،

فإننا نحكم بما يلي:

منطوق الحكم:

تعتبر أملاك منينة بلانشيه السالفة الذكر والواقعة في مقاطعة لكصر من مخزن لاكومب وحتى ربوة قلعة منينة أملاكاً عقارية يملكها حصرياً ابنها جوزيف بلانشيه. ويحق له التماس القوة العمومية لتنفيذ منطوق هذا الحكم كما تلزم مصالح الشهر العقاري بتمكينه من الحصول على وثائق ملكية جديدة باسمه تنفيذاً لحق الوراثة المحدد في المواد 44 و57 مكرّر من قانون الأحوال الشخصية الموريتاني.

حُرِّر في نواكشوط في الخامس عشر من يونيو 2012.

تُعلَّق نسخة من هذا الحكم على جدار المحكمة ويجب التنبيه إلى أنه لا يمكن نقض هذا الحكم بعد تسعين يوماً من تاريخ الإصدار.

تواقيع رئيس المحكمة والمستشارين...

ما إن انتهيت من قراءة الحكم حتى رحت أندفع كالطفل وأقبّل رأس الأستاذ بوياتو، لكنه تملّص مني وأخذ يقهقه وقال:

– لقد أخفيت عنك أنني كسبت الحكم بسهولة ويسر بعد أيام قليلة من توكيلي، وسبب كتماني لمنطوق الحكم هو أنني أريد التستر على هذا الانتصار حتى تنتهي الفترة التي يمكن فيها طعن هذا الحكم، وأنت تعرف أن أعضاء هذه المحكمة غير الموقرة لو كانوا يعرفون أننا نقاضي أمامهم رئيس الجمهورية لارتعدت فرائصهم ولملأوا بلاط المحكمة بالإسهال ولتلوث حتماً جو نواكشوط.

وراح يضحك بسذاجة كالمراهق الغفلان ويقول:

– صدقني لا يوجد من هو أجبن من قضاتنا... لقد حشرناهم في الزاوية والآن ليس أمام فخامته خياراً آخر سوى تسليمنا الأرض أو تغيير قوانين الجمهورية!

رمى عقب سيجارته في المنفضة وأشعل أخرى وراح يضغط زراً في حاسوبه وتحركت طابعته وأفرزت ورقة وحيدة وقال:

– هذه رسالة كتبتها لك وموجّهة إلى رئيس الجمهورية وما عليك سوى توقيعها.

تفحّصت الورقة بانتباه وعناية وأعدت قراءتها بحذر مرات عديدة واستغربت كيف تم اختيار كلماتها فقد حملت الكثير من التهديد المبطّن وغُلِّفت بعبارات مؤدّبة ورقيقة الحاشية، وهي كالتالي:

...

فخامة رئيس الجمهورية

يؤسفني أنني أريد لفت نظركم الكريم إلى مظلمةٍ كبيرة تعرّضت لها شخصياً منكم ومن أسلافكم، حيث اعتدت سلطات هذه البلاد على ممتلكاتي الشخصية وأنا بعد في طفولتي، وهي ممتلكات حصلت

عليها عبر الوراثة من والدتي المرحومة منينة بنت المختار، وقد شيِّدت مباني القصر والسكن الرئاسي الذي تقيمون فيه وكذا خزانات المياه القريبة من قصركم وبعض المباني الخصوصية الأخرى على أراضٍ تعود ملكيتها لي ولي وحدي.

ستجدون رفقة هذه الرسالة نسخاً من وثائق التملك وحكماً قضائياً من محكمة نواكشوط يوضّح بجلاء أنكم تعيشون على أرضٍ مغتصبة، وأنا على يقين من أنكم لا تعرفون تفاصيل هذه المظلمة الكبيرة التي تعرّضت لها في الخمسين سنة التي أعقبت وفاة أبوي في ظروف مأساوية بالغة الحزن والألم.

سيدي الرئيس

بعد أن أنصفني قضاء موريتانيا الموقّر يحقّ لي أن أتطلع للإنصاف والتفهّم منكم شخصياً، ولذلك فأنا أضع نفسي رهن إشارتكم للتباحث معكم حول تعويضات المدة الطويلة التي اغتُصبت فيها ممتلكاتي وأنتظر منكم إخلاء الجزء الذي تشغلون شخصياً من هذه الأرض، ولذلك فقد قررت أن أمهلكم شهراً كاملاً لحزم حقائبكم والرحيل إلى مكانٍ آخر، وأتصور أن شهراً كاملاً مدة كافية ومريحة للبحث عن أرضٍ بديلة ولائقة بالمهمة النبيلة التي كلّفكم بها شعب موريتانيا العظيم.

وفي الختام تقبّلوا مني – يا فخامة الرئيس – كل أدلة الاحترام ومشاعرالتقدير...

وقّعت على الرسالة كما أمرني المحامي الرائع ثم سألته عن رأيه في ردود فعل الرئيس فقال:

– هذا رجل جاهل ولا يبالي بالقوانين، ولا أستبعد أن يصبّ جام غضبه على القضاة، وذلك ما أتمنى أن يفعل لأنه إن فعل فسيساعدنا احتقاره للقضاء على خلق زخم إعلامي كبير حول المسألة!

وأضاف بعد هنيهة:

– حسب خبرتي، المهم في هذا النوع من القضايا أن يقتنع كل الناس أنك مظلوم، فحتى لو مانع هذا الرئيس من الاعتراف بحقك في هذه الأرض فسوف يأتي بعده من سيغيّر المنكر. وأنا لا أستبعد سقوطه كما سقط أسلافه. القانون معنا، ويجب أن يقف الناس مع القانون.

ثم طفح برقٌ مجنون في عينيه وكأنّ فكرةً ما طافت بخياله، وبدا شارداً كمن لا يستمع إلى ما كنت أقول عن عدم اهتمامي بتسييس القضية، حيث لا مصلحة كبيرة لي في إقحامي في خلافات المحامي المعارض والرئيس!

انتهت حالة الشرود بعد هنيهة فقال:

– سأطلب موعداً مع سفير فرنسا، وهو صديقي، وسنشرح له المظلمة التي تتعرض لها، لكن علينا ألاّ نترك لديه أي انطباع بأننا نطالب بأرض الرئاسة! سنقول له إنك تطالب بممتلكات عقارية في لكصر وأن المحكمة حكمت لصالحك، وساعتها لن يتردد في مطالبة الحكومة بإنصافك لأنك مواطن فرنسي

مظلوم في بلد أجنبي، وبعد مراسلته سيسقط سعادته في الفخ حيث سيكون في نفس الوضعية التي سيجد فيها القضاة الأعزاء أنفسهم قريباً!

ثم حمحم قليلاً وشرح إستراتيجيته قائلاً:

– إذا نجحنا في وضع دولة عظمى، أي فرنسا تحديداً، بجانبنا نكون كمن قطع نصف المسافة؛ فأنت ربما لا تعرف ضعف رؤسائنا أمام فرنسا!

ثم مدّ يده إلى داخل سترته وأمسك هاتفه الجوال، وكانت نظاراته الطبية في منتصف أنفه، وراح يبحث عن رقم صديقه، وفتح الميكروفون كي أستمع إلى المكالمة، وسرعان ما جاء صوت السفير يقول:

– آلو... آلو... نعم أستاذ محمد.

– أهلاً «اكسيلانس»... كم أنا مشتاق إلى ملاقاتكم ومجالسة العزيزة نادين... كيف حالكم... إنني أريد أن أطمئن عليكم، فمنذ زمنٍ طويل لم أحظَ بحصتي من وقتكم الثمين.

– أهلاً بك... لقد وعدتنا بالسفر معنا إلى جزيرة آرغين، لكن المحاكم ومشاغلها منعتنا من متعة رفقتكم... دوماً نحن سعداء بملاقاتكم، لكن في كل مرة كانت ترافقك زوجة جديدة، ولعل ذلك أزعج نادين قليلاً، فهي تخشى عليّ من العدوى كثيراً.

– قل لها إنني مازلت أبحث عن واحدة تشبه جمالها؛ ففي كل مرة أكتشف أنّ هناك نادين واحدة في هذا العالم ومتزوجة بأكثر رجال العالم وسامةً، ورغم حسدي لكما فإنني دوماً أدعو لكما في صلواتي بالسعادة الأبدية... وعلى كل حال انتهى موسم الطلاق بالنسبة إلي، فقد أصبحت كهلاً.

وراح ولد بوياتو يقهقه، وسمعت محاوره وقد استبدّت به هو الآخر نوبة ضحكٍ عارم.

خلال لوثة الضحكات أردف ولد بوياتو قائلاً:

– سعادة السفير، معي ضيف مهم من رعاياك، وهو نجل رجلٍ عظيم في تاريخ بلادكم الرائعة... هل سمعتم بالمسيو باتريك بلانشيه الذي كان آخر ولاتكم في هذه الربوع؟

– طبعاً، قرأت عنه وسمعت بابنه... إذا لم تخنّي الذاكرة اسمه جوزيف، وقد أخبرني القنصل أنه عاد حديثاً وأنه متزوج ببلجيكية تعمل طبيبةً هنا.

– بالضبط، جوزيف هذا صديقي، وقد نصحته بالتعرف إليكم، وبودّي أن تحدّدوا لنا موعداً شخصياً للتعارف خارج إطار العمل، وهو رجل مثقف ومتحضّر جداً.

– بكل سرور... أنت تعرف أن البيت مفتوح أمامك دائماً... مثلاً في هذا المساء سأكون فرحاً بمسامرتكما، ومن حسن حظك أن نادين غير موجودة في نواكشوط، لذلك من الممكن أن ندخّن على راحتنا.

– في حدود الساعة الثامنة والنصف أو التاسعة سنمرّ عليك أنا وصديقنا الجديد المسيو جوزيف بلانشيه.

– إذن أنتظركما بين الثامنة والتاسعة.

– أوريفوار.

– أوريفوار.

سفارة بلادي ببلادي تحتل مكاناً شاسعاً في قلب العاصمة الموريتانية، ويستكثر عليها البعض تلك الرقعة البسيطة ويتناسون أنها تنازلت لهم عن مليون كيلومتر مربّع بجرّة قلم، ويتناسون قصور باريس التي قويضت بتلك الرقعة الجرداء، ويتناسون دموع أبي لحظة إنزال العلم الجميل وإبداله بخرقتهم الخضراء الباهتة... إنه فعلاً لؤم البداة العريق ونكرانهم الدائم للجميل.

لقد خلقنا هذه الدولة ومنحنا هذه القبائل البدوية فرصة التنظم والاعتراف الدولي، وأرسلنا جيوشنا في كل مرة لحمايتهم، ومع ذلك يستكثرون علينا رقعةً من رملهم ويصادرون ممتلكاتي بجفاء... لا بدّ من تأديبهم وإيقافهم عند حدّهم؛ فهم مازالوا، رغم نصف قرن من عضوية الأمم المتحدة وعزف النشيد الوطني في كل مكان، لا يفهمون لغة القانون والحضارة.

لقد كنت حانقاً ومعتملاً بكل مشاعر الغدر والخيانة التي تعرضت لها في هذه المدينة، لكن الأستاذ ولد بوياتو أقنعني بابتلاع كبريائي والعمل معه بهدوء لتوريط فرنسا في قضيتي، وفي الحقيقة فقد قصّرت سفارة فرنسا في حقي كثيراً وطويلاً، ولو انتبهت وراقبت ممتلكاتي خلال سنوات الطفولة واليتم والألم لما تجاسر هؤلاء الأعراب على أموالي. لقد كان من المفروض أن يضع قنصل فرنسا علامة تملّك نيابةً عني، ولو فعل لما اعتبر الناس أنها أرض موات ومستباحة، لكن الصدفة لعبت دوراً كبيراً في تعقيد الوضعية حيث لم أحصل، أنا نفسي، على صكوك الملكية لهذه الرقعة إلا في وقت متأخر جداً وخلال زيارات نظمتها لأصدقاء أبوي في داكار، ولو لم أفعل لضاعت كل تلك الوثائق إلى الأبد.

في الثامنة والنصف دخلنا بوابة السفارة الفرنسية دون تفتيش، وتقدمت سيارة المحامي الشهير في الشارع الصغير متجاوزةً مكاتب السفارة وانساقت نحو الحي السكني، وبعد لحظة رأيت علم فرنسا يرفرف أمام فيلا صغيرة من طابقين وقد انغرس العلم في مربع من العشب الأخضر وتحته كانت هناك قطعة من فولاذ أو حديد تشبه مرساة سفينة، فاستفسرت ولد بوياتو عن القطعة فقال:

– هذه مرساة سفينة الميدوزا، وقد تمّ العثور على حطامها في الثمانينات، وتمّ تكريم السفارة بهذه القطعة الأثرية، وسفراء فرنسا هنا يعتبرونها بمثابة الحجر الأسعد ويمسحونها كل صباح ويطوفون بها كل مساء... ودخل في نوبة ضحك تقترب من الهستيريا.

تذكّرت ما سبق وقرأت عن سفينة الميدوزا التي غرقت قرب نواكشوط منذ قرنين ونجا من ركابها عددٌ قليل جداً تعلّق بخشبة العوامة الشهيرة، ويقال إنهم كانوا يقتاتون على جثث الموتى من رفاقهم... ثم وقع الناجون منهم في أسر قبائل الشواطئ التي صفدتهم بالقيود ورامت تعبيدهم، واستطاعت بيعهم نخاسةً بعد سنوات طويلة من الألم... وطافني شعورعابر بأنني أعيش الآن حصتي من محنة الميدوزا بصيغة جديدة تتناسب مع هذه الأزمان المعاصرة.

استقبلنا السفير ضاحكاً، وكان رجلاً خمسينياً أنيقاً يلبس بدلة مختلفة الألوان، حيث كان بنطاله رصاصي اللون وفوقه سترة بنية وقميص أبيض، وكان وجهه حادّ القسمات وله أنفٌ شامخ وعينان وديعتان وزرقاوتان وبسمةٌ عامرةٌ بالكياسة.

كان يُظهر الكثير من المحبة والإعجاب للمحامي ويضحك من حركاته وسكناته في لطف وحميمية، ولذا ظهرت موهبة ولد بوياتو المسرحية وتجلّت قدراته النادرة في إدخال البهجة إلى قلب كل من يلتقيه، وقدّمني إلى سعادته وهو ويقول في تباسطٍ ظريف: «صديقي هذا مغرم ببلجيكية...»، ثم تدافعت نكاته وأمطر بلجيكا بوابلٍ من السخرية السوداء المريرة.

جلسنا في صالون الرجل، وكان على منضدته صندوق كبير من السيجار الكوبي الفاخر، فراح المحامي يدخن بشراهة ويتحدث مع صديقه عن معارف مشتركين، واكتشفت أن السفير يشجّعه على الحديث بحرية وخمّنت أنه يستفيد من كمّ المعلومات المنطلقة كسيلٍ هادر لا يترك أحداً ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة.

وبعد دقائق دخل أحد خدم السفير وهمس بكلمة، فقال السفير: «تفضّلوا نتذوق بعض الجبن» فتقدمنا إلى مائدته والمحامي يواصل الحديث والسفير يواصل الإصغاء ويوجّه الحديث بمهارةٍ وكياسة وحرفية.

وخلال جلوسنا تقدّم أحد الخدم وصبّ جرعات من النبيذ في كؤوسنا، فاعتذرت لأسباب صحية، وطفق المحامي يعاقر النبيذ مع صديقه. وحين انتقلنا إلى قاعة الشاي راح المحامي يمهّد لي في حديثه ثم شرح حاجتي إلى مساعدة السفارة لمواجهة المغتصبين، فالتفت مضيفنا إليّ وقال:

– ماذا يمكننا القيام به من أجل حلّ مشكلتك؟

– القضاء أنصفني بأمانة تستحقّ التنويه والعرفان، لكن السلطة التنفيذية هنا تتجاهل أحكام القضاء، وقد تصورت أنها رتابة البيروقراطية العادية، لكن مع مرور الوقت ووجود سوابق تنتظر التنفيذ من عقود من الزمن أصبحت قلقاً جداً، ولذلك أتمنى أن تنبّه سفارة بلادي حكومة موريتانيا إلى ضرورة إنصافي واحترام قضاء بلادهم.

وبعد لحظة من التأمل والتروي قلت:

– مذكرة من سعادتكم تكفي ليتذكّروا أنني مواطن من دولة كبيرة وديمقراطية تهتمّ بشؤون رعاياها.

– وهل عندكم جنسية موريتانية؟

– لا، فقد ولدت من أبوين فرنسيين، وحتى إن كانت أمي موريتانية الأصل، لكن في زمانها كانت كل موريتانيا أرضاً فرنسية، وعلى كل حال فقد استفدت من رعاية مصالح هذه السفارة خلال سنوات طفولتي ولم أمتلك سوى الوثائق الفرنسية في كل حياتي، وقوانين موريتانيا كما تعلمون تمنع ازدواج الجنسية. بكل بساطة، لقد ولدت فرنسيا ومازلت كذلك.

– أنا لا أشكك في جنسيتك لكني أريد معرفة حيثيات الموضوع قبل التطرّق إليه مع حكومة موريتانيا.

هنا استعاد ولد بوياتو زمام المبادرة وقال:

– نحن نعرف أن أي سفير يجب أن يعمل على تحسين علاقات بلاده بالدولة التي يُعتَمد فيها، لكن كما سبقت وشرحت لسعادتكم لا بدّ من مساعدة هذا الرجل في محنته، وهو يطالب بأرض يعيش فيها بعض الخواص وتملّكوها دون وجه حق بتجاهل من الدوائر الرسمية هنا، وقد حكم له القضاء. وحسب فهمي للموضوع لو عبّرت فرنسا عن اهتمامها بمواطنها لانتهى الأمر ودياً، وقد نصحنا بعض الزملاء في باريس برفع دعوى أمام المحكمة الأوروبية لحقوق الإنسان ومكاتبة وزارة الخارجية الفرنسية، فقلت لهم إن لفرنسا سفيراً نشيطاً ومحترماً هنا وبمقدوره حلّ هذه المشكلة البسيطة بمراسلة أو توصية هاتفية!

ثم راح المحامي ينفث دخان السيجار الكوبي ويفتعل الضحك لتغطية التهديد المبطن والمغلّف بالإطراء الماكر، فالتقطت خيط الحديث ورحت أؤكد أقوال ولد بوياتو.

غيّر السفير دفّة الحديث وعاد المحامي إلى نوبة الضحك مرات عديدة، وكان يقلّد أصوات بعض المسؤولين، وفي الحادية عشرة والنصف غادرنا المكان وشيّعنا السفير حتى مرساة الميدوزا. وفي الختام قال لصديقه:

– سأدرس الملف معك غداً في المكتب وبحضور القنصل وسنرى ما يمكن فعله لمساعدة السيد جوزيف.

استطاع المحامي في نهاية الأسبوع استصدار مذكرة ديبلوماسية موجّهة إلى وزارة الخارجية الموريتانية تطلب فيها السفارة الفرنسية بوضوح من حكومة موريتانيا تمكين المواطن جوزيف بلانشيه من الاستفادة من كل حقوقه التي اعترف بها قضاء الجمهورية الإسلامية الموريتانية.

وبعد أيام من المذكرة الفرنسية اتّصل بي المحامي وأخبرني بموعد مع وزير العدل في عصر نفس اليوم، فالتحقت به أمام مبنى وزارة العدل غير بعيد من مباني الولاية وتوجّهنا إلى مكتبه. وحين دخلنا عليه كان يجلس في صالون مكتبه وينظر إلى ساعته بقرف وتبرّم، ولم يرحّب بنا ولم يغيّر من جلسته، وهو رجل شاب في مقتبل العمر ووسيم وعلى قيافة مقبولة، حتى وإن كانت بدلته لا تتماشى مع جو البلاد، وتقول قسماته العربية إنه أربعيني قليل التجربة، وكان، رغم قسماته العربية، فاحم البشرة أجعد الشعر وفي نظراته مخائل سعادة طفولية وفي تكبّره وتبرّمه غفلة محدثي النعم. وخمّنت بسرعة أنه متوجّس أو منزعج من المحامي، فقد قال للمحامي بعد برهة من التأمل المفتعل وبنبرةٍ متعجرفة:

– الأستاذ بوياتو، أنا قلت لك في التلفون إنني أريد الحديث مع «النصراني» صاحب القضية، وقلت لي إنك ستصطحبه معك، وأنت تعرف أنني أريد محادثته ولا أريد محادثتك أنت، والآن تعود إلى المراوغة وتأتي بدون المعني... متى ستنتهي يا صديقي من خلق المتاعب؟

ابتسم المحامي وقال بهدوء:

– المعني هو جوزيف بلانشيه، وهو هذا الرجل الذي يقف أمامك... وأشار إليّ بيده.

لم يبدُ أنّ الوزير قد صدّق ما سمع، إذ قال موجهاً حديثه إلى المحامي:

– أنا أنتظر فرنسياً، ولولا أن سفارة فرنسا طلبت منا النظر في قضيته لما هاتفتك. – ثم نظر إليّ في ازدراء وعاد ببصره للمحامي وأردف يقول: يا أستاذ، حتى في هذه السنّ لا تملّ من المزاح... هل هذا الرجل فرنسي؟

أدخلت يدي في جيب «دراعتي» وسحبت محفظتي وناولته جواز سفري الفرنسي بعصبية، وحين نظر إليه ابتسم وقال مستدركاً:

– سمحاً، أنا أترخّص كثيراً مع الأستاذ بوياتو لأنه صديقي. آسف جداً، تفضلوا بالجلوس...

وتغيرت سحنته سريعاً وصار جلّ حديثه متلعثما وأقلّ ثقة بنفسه.

كان أمامه ملفّ يوجد فيه الحكم وخريطة المخطط الأرضي الأصلية ونسخة من مذكرة السفارة الفرنسية ونسخ من شهادات العدول وجلّ الأدلة. وكان أول سؤال له عن موقع الأرض المتنازع عليها.

شرح له المحامي مساحة الأرض، وأنّ المعتدي عليها هو الدولة نفسها وتحديداً رئاسة الجمهورية والشركة الوطنية للمياه ووزارة المالية التي وزّعت على الخواص قطعاً أرضية بين الربوة والقصر الرئاسي، منتهزةً فرصة موت الملاّك وعجز الوريث اليتيم وضعفه وهوانه على الناس.

نزع الوزير نظاراته بعصبية ورفع سبّابته نحو الأستاذ بوياتو وقال:

– أنت تحب المشاكل كثيراً وتغالط كل الناس، وقد خدعت القضاة... لقد أخفيت عنهم الطرف الذي ترفع عليه الدعوى وقدّمت القضية وكأنها مجرد تجديد صكوك قديمة. أنا أعرفك منذ زمن طويل... كل قضاياك مشاكل في مشاكل.

لم ينفعل المحامي ولم يتوتّر بل قال في أريحية:

– معالي الوزير والزميل العزيز، أنتم تعرفون أن المحامي بطبعه يعيش من المشاكل، هذه مهنتي ومهنتكم الأصلية وليست مجال نقاشنا الآن. هناك أمور بديهية ومعروفة ولا تخفى عليكم وأنتم رجل القانون الكبير والفذ، ولقد كنت دوماً أعتبر أن تعيينكم في هذا القطاع أمر مهم ومفيد لما عرفت فيكم من علم وحصافة، لكنني كنت دوماً أقول إن سلك المحامين خسر بغيابكم محامياً لبيباً وفهيماً.

وابتلع ريقه وكأنه يحتاج إلى سيجارة وكوب ماء، ففهمه زميله السابق وقال له وهو مازال تحت تأثير حملة القصف بالإطراء والمجاملة: «يمكنك أن تدخن!» وضغط زراً بجانبه فدخل النادل فطلب شراباً وشاياً للجميع.

أشعل ولد بوياتو سيجارة «مارلبورو» تكرّم بها عليه محاوره، وشرب قنينة من الماء في ترخّص وتوسّع ومباشرة، دون صبّ الماء في كوب وكأنه يخشى العدوى، ثم عاد إلى مرافعته يقول:

– نحن لا نطلب المستحيل، فالدولة يمكنها نزع ملكية الخواص، لكن في هذه الحالة الدولة لم تنزع ملكية خاصة لأن من شروط نزع الملكية الخاصة أن تتمّ بمرسوم يوقّعه مجلس وزاري بعد الموافقة على تقرير يحدّد مساحة المكان المنتزع وتقييم الخسائر وتعويض المتضرر، ولا تجوز إلا وفق هذه الشروط، وهذا ما لم يحصل في هذه الحالة...

وراح يتحدث عن الظروف المأساوية التي حدثت فيها وفاة المالكة، والآن بعد أن حكم القضاء العادل والنزيه سيكون من المشرّف لنا كدولة احترام حكم القضاء.

ضحك الوزير بغباء واستهتار وكأنه لا يصدق ما سمع للتو، وبعد لحظة قال:

– أستاذ محمد ولد بوياتو، أنت تريد أن ننقل خزان المياه من الربوة ونقتل مليون شخص من العطش! أنت تريد ان نرحّل رئاسة الجمهورية من مكانها! أنت تريد مصادرة مساكن حي كامل من سكان هذه المدينة... هل هذا هو كل ما تريد؟

ابتسم الأستاذ بوياتو بهدوء وخبث وقال:

– ليس تماماً، يمكن النظر إلى المسالة من جهة أخرى... نحن نريد أن يشرب الناس ماءً نقياً لا تشوبه المظالم؛ ونريد من سكان هذا الحي أن ينعموا بالعدل والهدوء لا أن يربّوا أولادهم على أرض مغتصبة؛ ونريد رئاسة فاخرة تقود البلد بقسط وعدالة.

ثم عدّل ربطة عنقه وقال:

– لو توافرت لدينا مؤشرات إلى وجود إرادة جدية لدى حكومتكم فمن الجائز أن نصل إلى تسوية مريحة تأخذ بعين الاعتبار مكتسبات الدولة والشركة والخواص.

هزّ الوزير رأسه مرات عديدة، وكان في حيرة من أمره، ثم استفسر عن مقترحاتنا لحلّ هذه المسالة، فتلقّف المحامي السؤال وقال:

– الحل بسيط وسهل، يمكن التوافق مثلاً مع الشركة على عقد طويل الأمد من عقود 99 سنة مقابل ريع مالي لاستخدامها الربوة، وعليها أن تخصمه من المستهلكين، وبذلك يتحقق العدل ولا يخسر أحد أي شيء يذكر.

بالنسبة إلى سكان حي «ايلوسيه»، زميلكم ووزير المالية الموقّر يعتذر ببيان مكتوب عن توزيع وزارته بالخطأ أرض خاصة ويعوّض موكلي بمائة قطعة أرضية تصلح للسكن في مكان مشابه من حي تفرغ زينه وتنتهي القصة معه.

ثم أشعل سيجارة أخرى من مارلبورو الوزير دون استئذان ونفث دخانها بسرعة وعاد إلى مقترحاته يقول:

– بالنسبة إلى رئاسة الجمهورية لا أظن أن من الوارد القيام بأي تعويض مادي لنا، فالمكان له قيمة عاطفية كبيرة عند موكلي، خصوصاً مخزن لاكومب الذي نظّم فيه حفل الاستقلال، وموكّلي مستعد لتعويض الدولة عن مبانيها إذا لم تكن فترة استغلال المكان تتجاوز القيمة العقارية للمباني.

وقف الوزير بعصبية وهو يريد إنهاء الجلسة وقال:

– سأخبر رئيس الجمهورية بهذه التفاصيل، وإذا لم يكن لديكم مانع سأقترح عليه تعويضكم بأرض مستشفى الأمراض العصبية والنفسية.

فقلت له بنبرة مليئة بالتحدي:

– نحن أتينا للتباحث معكم بجدية، لكن معاليكم تفضلون السخرية. – ووقفت منزعجاً، ووقف المحامي وتبعني، وعند الباب قلت له في تهديد واضح: – سأكتب إلى رئيس فرنسا وسترون أنه ما ضاع حق وراءه طالب.

بعد أسبوعين متتاليين من حشد المتضامنين وشرح القضية في الأحزاب السياسية ومكاتبة السلطات الفرنسية في باريس ونواكشوط أخذت القضية منحىً مختلفاً، حيث بدأ الإعلام يهتم بها قليلاً ووقع ما كنا ننتظر، إذ اجتمع المجلس الأعلى للقضاء وقرر طرد رئيس المحكمة والمستشارين وحتى كاتب الضبط، وساعتها تتالت بيانات الأحزاب السياسية وخرجت الصحف تتحدث عن أكبر مظلمة في تاريخ موريتانيا الحديثة. واكتشفت أن ولد بوياتو رجل خطر وماهر، فقد اصطحب معه قضاة المحكمة إلى مؤتمراته

الصحفية التي تُعقد في فنادق العاصمة، وأربك وزير العدل في أول مؤتمر حيث نشر على الملأ مشروع طعن لصالح القانون كان الوزير يعتزم القيام به، وشرح للناس أن الطعن ممنوع في هذه الحالة، وحذّره من مغبّة التلاعب بالقانون ومن مساءلته شخصياً عن جريمة تعطيل العدالة.

أصبحت شخصا مشهورا في بلادي، وهذا مكسب كبير، لكن عزّ عليّ كثيراً ما حلّ بقضاة المحكمة من بلاء بسببي، وقد استطاع المحامي تحويل قضيتنا إلى نقاشات البرلمان، وانتهى النقاش باتفاق يعيد المستشارين إلى سابق وضعهم، لكن رئيس الجمهورية لم يغفر لرئيس المحكمة السيد محمد عبد الله ولد الخيرات جسارته وكلامه في المؤتمرات الصحفية، وهكذا أصبح يمضي جلّ أوقاته معي في مكاتب الصحف أو مع الأستاذ بوياتو، وقد اكتشفت فيه من الاعتداد بنفسه ما جعلني أحترمه كثيراً، ولست وحدي في ذلك، لأنه نوع نادر من القضاة هنا لما رشح منه في هذه المحنة من صلابة وتماسك.

قبل بداية الصيف سافرنا إلى بروكسل ووضعت آندريه جنينها وكان بنتا جميلة.

في آخر المطاف ولدت منينة بلانشيه من جديد... ولدت من رمادها كما يولد طائر الفينيق، وزادني ميلادها عزماً على مواصلة العراك لاستعادة أملاكنا المغتصبة.

أمضيت أياما طويلة في باريس وأنا أبحث عن السند من سلطات بلادي ضد سلطات بلادي، وتمكّنت من إقناع قصر الإليزيه بمكاتبة رئيس موريتانيا مباشرةً والضغط عليه لحلّ هذه المشكلة العالقة والمهمة كما وصفها نص المراسلة.

تجاهلت حكومة موريتانيا قضيتي ولم تعرض عليّ أي حل أو أية تسوية، وكنت كل يوم أتظاهر أمام قصر الرئاسة حتى مللت شمس الضحى اللاهبة، وقررت أن أعمل بنصيحة الأستاذ ولد بوياتو وأن أنتظر حدوث ضربة من ضربات القدر.

ظلّ الأستاذ بوياتو ثابتاً ويواجه الحياة بسخرية عجيبة، ويعلق في نوبات ضحكه الكثيرة على القضية قائلاً:

– قضيتنا هذه ثروة مرتهنة ومحتجزة اعترف لنا بها القضاء ومنعها عنّا القدر!

ثم يضيف:

– لقد تمّ توثيقها وتحديدها قضائياً، وهذا هو المهم، ولنضعها على الرف ريثما تتغير الأحوال وستتغير... قريباً.

على كل حال مازلت أنتظر موعدي مع القدر، ومازلت أتمسّك بكل حقوقي العقارية في قلب نواكشوط، ولا أقبل السخرية مني، وهي مرّة ومتنوعة، فكثيراً ما تحدّث الناس عني في غيابي كرجل مجنون يريد طرد رئيس الجمهورية من قصره، وفي حضوري تتغير النبرة لكنها تظل ساخرة بل مؤلمة.

جلّ من أعرف اختزل قصتي في نكتة جارحة، لكنّ طيف منينة المرفرف على تلك الرقعة يمدّني في كل يوم بالقوة ويلهمني في كل لحظة الصبر وطول النفس.

حين رأيت بأم عيني في مرات متلاحقة شباباً يحترقون قرب مخزن لاكومب ويتفحّمون دون منقذ ليلهبوا مشاعر الخانعين والمستسلمين، قلب ذلك كل نظرتي إلى هذه المظلمة رأساً على عقب، حيث أضاف إليها بعداً جديداً عاماً ومجرّداً وفلسفياً.

لذلك اعتزمت، فور رجوع العدل إلى هذه الربوع واستعادة ممتلكاتي، أن أحوّل كل المساحة من الربوة إلى المخزن إلى ساحةٍ للفرجة ومنتزهٍ عام يخلّد أسماء الشهداء الذين التهمتهم نيران الغيظ والظلم قرب أسوار القصر البغيض.

لقد كان هذا المكان موطناً للحب والإنسانية، فمنه كانت صلوات الشيخ الرحموني ترتفع كل مساء إلى السماوات العلوية، وقد ضمخّته ألحان سدوم وأشعار ولد مختور بعطرها الفواح، ومازال طيف تلك الملكة العظيمة يرفض التنازل عن جبروته ويحتقر أمامي في كل لقيا سطوة العابرين ويستسخف غرورهم وغفلتهم.

هذا هو كل ما في جعبتي، وهو ما حكم لي به القضاء، لكن «لم يقبله القدر بعد» كما يقول الأستاذ بوياتو، وسأواصل بعناد معركتي والذود عن حقوقي، لن أقصّر ولن أفرّط... تلك هي رسالتي في الحياة.

وسأحضر منينة الصغيرة وسأربّيها لمواصلة المشوار بعدي؛ فقد يكون من قدرها أن تستعيد ما كان لمنينة بلانشيه من مجد وتبختر وخيلاء، وربما تكون محظوظة أكثر مني، وربما يُكتب لها ما لم يُكتب لي.

ولله الأمر من قبل ومن بعد!

من أصول بدويّة تنحدر منينة، الفتاة الموريتانيّة التي تهرب إلى نواكشوط بعد اعتقال عائلتها لتلتقي باتريك بلانشيه، الحاكم الذي انتدبه الاحتلال الفرنسيّ ليحكم نواكشوط، فيتزوجها لتغدو منينة بلانشيه.

يكتشف الزوج عقمه بعد الزواج فيستعين بالحارس الموريتاني لتنجب منه منينة ابنها جوزيف الذي يغدو فرنسيّاً بملامح وأصول موريتانيّة.

يستعيد جوزيف بلانشيه سيرة أمّه بعد موتها في حادثة طائرة؛ لكن لماذا يقاضي رِئاسة الجمهورية الموريتانية؟ وما حكاية القصر الرئاسي في بلد تمكن أخيراً من الحصول على استقلاله؟
رواية غنية بأحداثها، تخوض في العوالم النفسية لشخوصها عبر تاريخ طويل من الاضطهاد الذي لم يزُل بزوال الاحتلال.

محمد ولد أمين كاتب وروائي موريتاني. حائز ماجستير في العلوم السياسية والحقوق من جامعة لوفان ببلجيكا وشهادة التخصص العالي في الإعلام من معهد ايبال ببروكسل. وزير سابق للاتصال والعلاقة مع البرلمان ثم أصبح وزيراً مستشاراً في رئاسة الدولة. يعتبر خبيراً دولياً في قضايا الأمن الإقليمي. يزاول مهنة المحاماة في موريتانيا.

ISBN 978-6-14425-767-8
9 786144 257678 >
DAR AL SAQI
الساقي
www.daralsaqi.com